رسول محمد رسول

# يحدث في بغداد

رواية



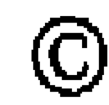
الدار المصرية اللبنانية

# يحدث في بغداد

روايـة

رسول، رسول محمد.
يحدث في بغداد: رواية / رسول محمد رسول .- ط1.-
القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 2014.
200 ص؛ 20 سم.
تدمك: 4 - 932 - 427 - 977 - 978
1- القصص العربية.
أ - العنوان. 813
رقم الإيداع: 19127 /2014

---



**الدار المصرية اللبنانية**
16 عبد الخالق ثروت القاهرة.
تليفون: 23910250 202 +
فاكس: 23909618 202 + - ص. ب 2022
E-mail:info@almasriah.com
www. almasriah.com

---


الطبعة الأولى: ذو القعدة 1435 هـ - سبتمبر 2014م

---

رسول محمد رسول

# يحدث في بغداد

رواية

الدار المصرية اللبنانية

# إهداء

إلى أمي..

لا ترحلي عنِّي.. سامحيني..

«مرهون»

بعـد الانتهاء من شـعائر الدفن، عدتُ إلى منزلـي ثقيل الخطى، حزيـن الـروح؛ لأكون مع نفسـي وحيدًا وقـد حبسـتُ دموعي منذ سـمعت نبـأ وفـاة صديقـي الكاتـب والقـاص والروائـي «مرهـون الشاكر» في مستشفى المدينة، إثر مرض نهش رئتيه، وعذَّب روحه، حتى أودعه الغياب الأبدي.

# 1

لم يعش مرهون طويلًا، كانت أربعة عقود وثلاث سنين أمضاها ملتاعًا بين الدراسة والقراءة والكتابة والعمل والجوع والخوف من رهبة الحروب التي دمَّرت كيان وطنه المعذَّب حتى استحال إلى خراب موحش أفقده بهاءه الذهبي الذي كان عليه.

رحل «مرهون» إلى موتٍ أبديٍّ بعد تمزُّق رئته اليمنى لينتقل المرض إلى رئته الأخرى ولا يتنفس سوى العدم ليمضي عن عالمنا كئيبًا، مطعون الذات، مُستسلمًا لمآل الرحيل الأبدي مُكرهًا.

تزوَّج «مرهون» من حبيبته ومدينة قلبه الأولى «فاطمة البصري»، التي استُشهدت في حرب عام 1991 بقصفٍ صاروخيٍّ هدم منزل أهلها شرق العاصمة بغداد، وقتل كل أفراد أسرتها بعد أن لاذت بوهم أمانه خوفًا من القصف الصاروخي الأمريكي الأرعن على أحياء العاصمة في حينها. تزوج «مرهون» ثانية من «نُهى» التي كان يصفها دائمًا بالغامضة؛ تزوَّجها من دون أن يحبها، وتلك كانت أقداره التي خبأت له مصائر داجنة، تزوَّجها احترامًا لوالدته التي كانت تريد له أطفالًا يرثون سلالة أبيه، ويجددون حياته من بعده..

في غير مرَّة، كان المرحوم يقول لنا؛ أنا وزوجتي «مريم الشبلي» إنـه «لا ينسـجم مع زوجته الثانية نهـى، وإنَّ عالمها غير عالمه، فهي لا تريـد العيش مع مثقفٍ مُبدعٍ، إنَّهـا تبحث عـن زوجٍ ثري يفرش تحت أقدامها ليرات من الذهب، ويمنحها في كل شـهرٍ تذكرة سفر وحفنة دولارات أمريكية لتلهو بالحياة بعيدًا عنه...».

كانـت «نهـى» تبحث عـن حرية لا تريـد أن تكون مسـؤولة عن نهاياتها حتى لو كانت كارثية عليها وعلى غيرها.

منـذ أخـذ يحس بتناقـص الهواء فـي رئتيه، حتى بـدأت أوجاعه تظهر كغيوم معتمةٍ في سماء حياته الصحية، كان يقول: «نهى أغوت عزرائيل ليأسـرني بظلاله الخبيثة، ويرسـلني عليلًا إلى الموت على طبق من مرض».

ولذلـك أخـذت «نهـى» تنـوص نائية عنـه، ولا تقتـرب منه، بل راحـت توسِّـع الفجوة بينهـا ووالدتـه، وهي امـرأة السـبعين عامًا، وأخـذت تحرق أكثر أيامها في منزل والديهـا، كما كانت تدَّعي هي ذلـك، لكن «مرهون» بدا مُرتابًا في مزاعمها تلك، وكان ذلك يؤلمه ويمـزق ذاته، بـل ويفاقم من أوجاعه حتى إنه طلبهـا مرارًا للمجيء إلى المستشفى حيث يُعالج، لكنها دائمًا كانت تختلق الأعذار، كان يريـد أن يوصيها خيرًا بأمه في ظلِّ تفكيره الغريب بأن زوجته «نهى» يمكن أن تتحمَّل عبء مسـؤولية مـن هذا النوع، لكنَّها لم تفكِّر بأي

شـيء من هذا القبيل مطلقًا، فهي تُدرك أن «مرهون» لا يملك شـيئًا ثمينًا خلا أثاث حجرة نومه، ومكتبة ضخمة كثيرًا ما أشهرت كرهها لهـا، أما المنزل فهو حيازة لوالدتـه منذ كان والد «مرهون» على قيد الحياة قبل وفاته بحادث سير أرعن.

كانت «نهى» تقـول، بين الحين والآخر، إن «مرهون» لا جدوى منه كزوج، وهو ما كانت تصرِّح به جهارًا أمامه ولوالدته، بل ولأهلها حتى، وربما لآخرين...

هناك الكثير ممَّا لا نعرفه عن حياتهما معًا سـوى ما كان يخبرني به «مرهون» شـخصيًّا؛ فما سبب مرضه بسرطان الرئة، وهو الإنسان الذي يعتني بصحته جيدًا؟

يوجـد هنـاك مـا وراء أو ما خلـف، يوجد مـا تحـت، وما حول فـي حياتـه اليوميـة، يوجد ما هو «مسـكوت عنه»، كمـا يقول بعض الفلاسـفة، أما ما هو واضح من حياته فلا يمثل إلَّا اليسـير مما تبدَّى عن مجريات حياته الزوجية، سواء من خلال ما كان يخبرني به أو ما يبدو لي ولزوجتي «مريم».

أيـام العـزاء الثلاثة مضت بحزنٍ مـؤسٍ؛ لم يأتِ أحـد من عائلة «نهـى»، ولا حتـى «نهـى» نفسـها، كان الحاضـرون مـن أصدقـاء «مرهـون»؛ روائيـون، شـعراء، نقَّـاد، مثقفـون، صحافيـون.. كانت أم «مرهـون» تنحب بـكاءً حزين الطيَّـة ينوح له النهـار كلَّما علمتْ

بمجيء أحد أصدقاء ولدها الراحل.. الحاضرون، بدوْرهم، كانوا يبكون رحيله المفاجئ والغامض، ويبكون بأنينٍ محبوسٍ أشجان والدته المكروبة بموت آخر أولادها الأربعة؛ «واقد الشاكر»، و«علي الشاكر» توفيا في حرب الثمانينيات المشؤومة، «حسين الشاكر» قطع المسلَّحون المتطرِّفون الحالمون بحور الجنَّة رأسه عن جسمه في آماق موحشة غرب العاصمة، أما «مرهون الشاكر» فمات كمدًا، كما تقول والدته؛ «فما كان سرطان الرئة الذي مزَّق رئتيه إلَّا سببًا قريب الأثر في رحيله؛ فلم يكن مرهون بالمدخِّن للسجائر، ولا بمتعاطٍ للخمر؛ كان نظيف الجسم، نظيف الروح، متأنيًا في طعامه، عاطر الثياب.. إنَّها الأفعى اللعوب نُهى التي حوَّلت أيامه إلى نكدٍ وجحيمٍ وقهرٍ وخسران لم يكن مرهون الرقيق الإحساس بذلك الكائن القادر على مواجهة ما كان يلاقيه حتى أنهت حياته ليرحل عن الدنيا مظلوم النَّفس مغبون النصيب».

# 2

قبـل وفاته بأيـام، كان «مرهون» قد طلب منـي أن أكون قريبًا من والدته في حال اشتداد سقمه ومرضه عليه. كان يريد أن يقول: «كن قريبًا منها يا سعيد في حال موتي، فأنت ولدها من بعدي».

كان يحْـدس أن زوجته «نهى» ستتخلَّى عـن والدته، ويعرف أن لا أحـد سـيكون مع هذه الوالـدة وهي الغريبة فـي العاصمة، المرأة المقطوعـة من شـجرة، فليس لهـا أخوة ولا أخوات سـوى الأقرباء الأباعد في زمن افترق فيه الناس بعضهم عن بعض صوب أقدارهم وهم يحملون أرواحهم على راحات أكفهم بعد حلول الموت ضيفًا يسرح بين أصابعهم حاصدًا أرواحهم بخلسة وقحة...

منـذ أيام العـزاء، دفعتُ بزوجتي «مريم» إلـى بيت أم «مرهون»، أبقيتهـا هنـاك حتـى يـوم أربعينيـة المتوفى، كمـا يُقـال. وفي خلال ذلـك، لـم أكن بعيدًا عنهمـا، ولم يكن منزلي ببعيـد حتى عن دار أم «مرهون»، بل وأخذت أحسب لهذه الأم المفجوعة برحيل أولادها الأربعة حسابًا في معاشي الشهري.

لقد حسمتُ أمري وجعلتها أمًّا لي.. وكانت زوجتي «مريم» مُنسجمة معي في كل ذلك؛ خصوصًا أنَّها لم تنسَ ذلك اليوم الذي اختارتها أم «مرهون» زوجة لي، ومنذ يومها كانت «مريم» تنادي والدة «مرهون»: «يا أمي»، و«مريم» التي تنحدر من مدينة بابل، هي الأخرى غريبة على العاصمة المظلمة سوى من أصوات الرصاص المتقاذف على غير هدى، وصور القتل الأعمى، وتجوال غربان الشر بين خرائبها الموحشة.. «مريم» ليس لها سواي زوجًا وحبيبًا وأبًا وأخًا في هذه العاصمة المخيفة.

# 3

كانـت المدرسـة الابتدائيـة هـي المـكان الأول الـذي جمعنـي و«مرهون»، فأمضينا سـنوات الدراسة الأولى معًا كصديقين أخوين يسـكنان في منطقة واحدة، ولا فرق بيـن دارينا، فقد كان بيت والده هو بيتي، وبيت والدي هو بيت «مرهون».

ولمَّـا تخرجنـا فـي كليـة الآداب، عملنا معًـا فـي وزارة واحدة، وخـلال تلك السـنوات، مـرَّت علينـا مآسٍ عاشـها وطننـا الجريح من حـروب وحصار اقتصـادي وظلم دولي وعربـي، وأخيرًا صور الإرهـاب الداميـة التي باتت شـبحًا يخنقنـا رعبه، وتؤذينا بشـاعته، وتعدمنا سيوفه.

أخبرني مدير الحسـابات بأن زوجة المرحوم «مرهون»، جاءت إليـه، وبدأت تتابـع أوراق حصولها على الراتـب التقاعدي لزوجها المتوفى.

شـعرتُ بالغضـب ممَّـا سـمعته حتى هـدَّأ مدير الحسـابات من روعي عندما قال لي: «إنه حقهـا، ولا أحد يمنعها؛ هو استحقاقها».

بلعتُ غضبي، وطويت توتري، فبدلًا من التنازل عن الراتب التقاعدي لوالدة «مرهون» المسكينة ترى أرملته «نهى» تطالب به، نعم هو حقها، ولكن ماذا عن حقوق المرأة المسكينة أم «مرهون»؟

أخذتني خطاي إلى مقصف الوزارة لأشرب كأس شاي سيكون طعمه مرًّا، وأدخِّن سجائري البغيضة بعد سورة الغضب تلك التي أثارتها «نهى» بداخلي وهي التي لم تحضر حتى في عزاء وفاة زوجها، ولم تفكِّر بوالدته: «أية مخلوقة هذه؟». تساءلت.

في الطريق إلى المقصف، صادفني «عادل»، ساعي البريد الذي كان يحمل إلينا دائمًا، أنا و«مرهون»، المظاريف والرسائل القادمة من الخارج، التي تضمُّ، في أحيانٍ كثيرةٍ، بعض الكتب والمجلات الأدبية التي لا تُباع في مكتبات بلدنا، بل ولا تصل إليها حتى..

عندما رآني «عادل»، تهاوت دموعه على خديه، كان صوته غائرًا في حنجرته، كان يريد البكاء، لكنَّه رمى بوجهه على صدري وأخذ يبكي ناحبًا، قال لي: «سامحني، لأنني لم أحضر مراسم الدفن ولا العزاء، كان زحام المركبات، وتعقُّد التفتيش، وتعدُّد الانفجارات مانعًا».

أوضح لي «عادل» بعدها، أنَّ ابنته «سارة» كانت مريضة، وأنَّه كان منشغلًا بعلتها، فعذرته، ورحت أُهدِّئ من أحزانه حتى فتح حقيبته، وأعطاني رزمة من الرسائل القادمة إلى «مرهون» من

بيروت، وقبرص، والشارقة، والبصرة، والنجف، بعضها بدا سميكًا يضمُّ مطبوعات متنوِّعة الحجم، وغيرها مجرَّد مظاريف خفيفة الوزن.

عدتُ إلى مكتبي لكنَّني لم أتمالك نفسي، فأجهشتُ ببكائي ناحبًا موت أحبَّ أصدقائي إليَّ حتى تساءلتُ بحسرة المفجوع: «من أين جئتني يا عادل؟».

صارت دموعي تهطل على الرسائل القادمة إلى «مرهون». جاءتني زميلتي «أم هناء» لتزيل عني غيمة بؤسي في تلك اللحظة، لكن دموعها سرعان ما انفرطت لتبكي خسارتنا جميعًا لـ «مرهون الشاكر»، الإنسان والكاتب والمبدع الأصيل، كان بكاؤها شجيًّا مشوبًا بحرقةٍ وندمٍ على كل الذين يموتون في وطن يأخذنا ونأخذه إلى الموت في كل لحظة.

ما كانت تلك الظهيرة عابرة، إنما حزينة بكل ما فيها من ألم.

حملت المظاريف معي إلى منزلي، وحملتها مساءً إلى أم «مرهون»، قلت لها: «هذا بريد مرهون»، لكن دموعها فاضت عن مآقيها وهي ترنو لصوت الذكرى، وتستعيد في ذهنها مناسبة من هذا النوع عندما كان «مرهون» يدخل البيت وهو يحمل رزمًا من الرسائل والمظاريف، فقالت، بعد أن جفَّفت دموعها بكفها: «افتحها يا ولدي؛ لك أن تفتحها في أي وقت، فأنت مرهون يا سعيد».

التفتُّ نحـو «مريم»، وجدتها تحبس دمعًا سـبخًا، لكنَّها أومأت لـي باحتواء الموقف.. بدأتُ بفتح المظاريف، كان في أحدها صكًّا مصرفيًّـا، وكانت تلك كارثة، فمبلغ هذا الصك سـيذهب حتمًا إلى أرملة «مرهون».

فتحـت المظـروف الثانـي، وكانت فيه رسـالة من ناشـر لبناني، لكنَّني أرجأتُ قراءتها..

فتحـتُ الثالـث فـكان يضـمُّ رسـالة مـن مجلـة «الرافـد» التـي تصدر بالشـارقة، أمـا الرابع والخامس فكانا يضمَّان دواوين شـعر، ومجموعـات قصصيـة صغيـرة، وروايـة جديـدة لكاتبـة إماراتيـة، ومجلات عربية صدرت حديثًا.

اسـتأنفتُ، بعـد ذلك، قـراءة الرسـالة الثانيـة، والتي يُذكِّـر فيها الناشر اللبناني، الذي كان «مرهون» يتعامل معه في إصدار مؤلَّفاته، بضرورة إرسـال مخطوط الرواية قبل الموعد المتفق عليه بشـهرين حتى يمكن طبعها وترشـيحها إلى إحـدى الجوائز الإبداعية العربية هذا العام.

سـألت أم «مرهون» عـن أوراق ولدها وكتاباتـه، فأوضحت لي أنَّها جمعتها وحشـرتها في صندوق، ودسَّـته تحت سـرير المرحوم فـي حجرته، فطلبـتُ من «مريم» الدخول إلى غرفـة «مرهون» لكي تأتيني بذلك الصندوق، إلَّا أنَّها امتنعت قائلة: «لا بُدَّ وأن تأتي زوجة المرحوم نفسها لكي تعطيك إياها يا سعيد».

لم يعجبني هذا الرَّد؛ فزوجة «مرهون» لا تهتم بالأمر، وأوضحتُ ذلك لأم «مرهون»، وكذلك لزوجتي «مريم».

اتفقنا على الدخول كلنا إلى الغرفة، لكن والدته رفضت ذلك، فهي لا تقوى على رؤية أشياء ولدها الراحل، بل ومنذ انتهاء أيام العزاء لم تدخل إلى حجرة ولدها سوى ذلك اليوم الذي وضعت فيه الصندوق تحت سريره، هذا ما أخبرتني به «مريم» فاضطررتُ إلى الدخول إلى الحجرة مع «مريم» بعد أن غيرت رأيها حول هذا الموضوع..

لاح لنا الصندوق مدسوسًا تحت سرير «مرهون»، وجدنا فيه بضع ملفات أغلبها مكتوبة بخطِّ «مرهون»، وقلتُ لنفسي و«مريم» إلى جانبي: «هذا ما أبحث عنه.. هذا ما أريده..».

حملتُ الصندوق إلى والدة «مرهون» التي كانت تجلس في الصالة، وأخبرتها بالتفاصيل، قلت لها إن المرحوم كان يكتب رواية، واتفق مع ناشر لبناني بأن يدفع مخطوطها إليه في نهاية العام، والناشر لم يعلم برحيل «مرهون» لأنَّ الرسالة مؤرَّخة قبل رحيله بيومين، لكن «عادل»، ساعي البريد، احتفظ بها وسلَّمها لي صباح هذا اليوم، فقالت أم «مرهون»: «تصرَّف بالأمر، إذا وجدتها فأرسلها للناشر».

بحثت في الصندوق، لكنَّني لم أجد ما أريده في بداية الأمر، بدلًا من ذلك، وجدتُ أوراقًا متفرِّقة مكتوبة بخط «مرهون» يبدو أن والدته جمعتها على غير نسق، ووضعتها في الصندوق لأنَّها تعتقد بعدم جدوى كل ما هو موجود بعد رحيل ولدها صاحب الشأن، فصار الاتفاق أنْ أحمل الصندوق معي إلى منزلي، وأجلس هناك لإعادة ترتيب ما فيه من مقالات، ونصوص إبداعية، وغير ذلك من ملفات وأوراق إنْ وجدت..

# 4

ودَّعت أم «مرهون» وزوجتي «مريم» لكي أعود إلى منزلي وأنا أحمل الصندوق الذي بدا لي كنزًا لم أحصل على مثله سابقًا.

جلستُ في غرفتي، أخذت أُقلِّب الأوراق التي فيه، ثلاث صفحات تحمل عنوان: «مسرَّات ضائعة»، تبدو قصة قصيرة، وأربع صفحات تبدو قراءة تحليلية في مقاطع من «ألف ليلة وليلة»، وأربع صفحات أخرى تضمُّ عشر أقصوصات أو «قصص قصيرة جدًّا» كما يقول بعض النقَّاد، وعشرون صفحة تبدو دراسة في رواية عبد الرحمن منيف «شرق المتوسط»، وخمس صفحات أخرى تبدو قصَّة قصيرة تحت عنوان: «يوميات كاتب متجوِّل».

نظرتُ في قاع الصندوق، فوجدت ضميمة أوراق أخرى خامدة على بطنها هي كل ما تبقَّى فيه، حملتها بكفي وإحساسي يساورني بأنَّها الرواية، نظرتُ في وجه صفحتها الأولى:

آهِ يا مرهون، هذه هي روايتك: «ينحني الصابر للوجع».

هكـذا قرأت عنوانها بصوت المحارب المنتصر: «عنوان رائع يا مرهـون، كيف اصطفيت هكذا عنوانًا؟ جميلةٌ هي أسـرارك يا رفيق العمر كله..».

ركنتُ الأوراق جانبًا عـن الصندوق، وضعتها على طاولة عتيقة كان المرحوم قد أعطاها لي قبل سنوات كأيقونة عريقة الأثر، لكنَّني شـعرت بالحاجة إلى رشـة ماء تنعـش بدني المرهـق.. دخلت إلى مطبخي، وعمَّرت إبريق شـاي أو «طنجرة شـاي»، كمـا يُقال عادة، لأسـهر مـع مخطوط «مرهـون» أو مخطـوط رواية «ينحنـي الصابر للوجـع»، أردتُ الاطمئنـان علـى أن الروايـة مكتملـة الفصـول، نظـرت في الصفحة الأخيـرة فوجدت توقيع «مرهون» في وسـطها بكلمة: «انتهت».

شـعرت بالنشـوة لأنني تحصَّلـت علـى الكنـز مكتمـلًا، كان «مرهـون» لا يسـتخدم الحاسـوب فـي كتابـة أعمالـه القصصيـة والروائية، بل وحتى مقالاته ودراساته، كان يشعر بدفء الورق وهو يكتب عليه بقلم رصاصٍ، كان يريد أن يعيش تلميذًا أبد الدهر، حتى إنـه ذكر لي مرَّةً أن زوجتـه الراحلة «فاطمة البصـري»، كانت تحب خطَّـه الأنيـق عندما يكتب، بـل كانت تتغنَّـى بأصابعه التـي يمررها على الورق بشـكل حميم، وكأنه يريد القـول إن «فاطمة» تغار حتى مـن الورق الـذي يكتب عليـه.. وغالبًا ما كان يروي لـي أنه لا يجد أقـلام الرصـاص التي بـدأ بأحدهـا كتابة بعـض مقالاتـه وقصصه،

وفـي يوم ما، وبعـد رحيلها الفاجـع ذاك، يقول «مرهـون»: «عثرتُ علـى دزينة أقلام كنتُ قد اسـتخدمتها من ذي قبـل في الكتابة وهي مرصوصـة بيـن طيّات ثياب فاطمة العاطرة التـي احتفظتُ بها لفترة بعد استشـهادها، وفي تلك اللحظة، بكيت حنينًا إلى نزواتها البريئة تلك، أيّة أنثى رائعة كنتِ يا فاطمة عندما تسرقين مني أشيائي العابقة برائحة أصابعي التي كثيرًا ما كنتِ تضمينها إلى صدرك عندما ينشـد جسدك موسيقى حنينه غير بعيد عن شفتي وأنفاسي؟».

هكذا كان يسـأل «مرهون» بحسـرة الخاسـر كلّمـا تذكّر زوجته الأولى..

أمسـكتُ برزمـة الـورق، ورق المخطوط، بين كفيّ لكي أشـرع بقـراءة الرواية، تذكّرتُ ما قاله لـي «مرهون» يومًا من أن كتابة رواية هي أشـبه بعملية «تسـلُّق جبل، عليكَ أن تتخذ نفَسًـا، وتضبطه على وقع الخطى، كما كان يقول الروائي الإيطالي أمبرتو إيكو».

كان تذكُّـري لما قاله المرحوم رائقًا لي وأنـا أهمُّ بقراءة الرواية، إلا أن النُّعـاس المخاتل حطَّ رحاله على جفني، فلقيتُها وقد تملَّكها الوهن..

وضعـت ضميمة الأوراق جانبًا، ومددتُ جسـدي المُنهك على أريكـة صالتنـا.. رحتُ أترسَّـم سـقفها بذهنـي، لكنَّه السـقف راح يتوارى في أحلام رقاد غائر الثنايا..

# 5

صباحًا، أيقظني رنين هاتفي الجديد على حياة بلدنا، نهضتُ من فراشـي، كان حدْسي بأنَّها «مريم»، لكن حدْسي خذلني هذه المرَّة، بدا الرقم مجهولًا ، فلم أردّ، وظل هذا الرقم النكرة يردِّد عواءه حتى نهضت عن سريري وأجبت، سألني بصوتٍ حرش:

- بو حاتم؟

- كلا..

فاعتذرَ؛ لألعن اللحظة، ولكنني تسـاءلت: «أبو حاتم، مَنْ يكون هذا الفحل؟».

حاولت العودة إلى سـريري، لكنها عقارب الساعة بدت كسيفٍ جبَّار يقول لي: «حان دور العمل أيها النائم المكسال»..

هرولت إلى واجبات الصباح؛ الاستحمام، الملابس، قطعة خبز مع الجبن، شاي، خروج من البيت، زحمة سير المركبات الجنونية، مفاجـآت الطريـق؛ مفخخة، عبوة ناسـفة، انتحاري، غلق شـوارع، صراخ السائقين، شتائم، عراك متسوِّلين صغار الحجم عند إشارات

المرور المطفأة الأنوار، قذارة أكوام القمامة المتراصة في الشوارع، سيارات الحرس والجيش والأمن والمرور، السابلة، وأشياء أخرى مزعجة..

تذكَّرت أنني نسيت مخطوطة الرواية في المنزل: «آه.. اللعنة عليك يا هذا الصباح، لو حملتها معي إلى عملي لكنتُ بدأت بقراءتها؟ سحقًا لخمول ذاكرتي، اللعنة عليكِ أيتها البليدة..».

رنَّ هاتفي وأنا في الطريق إلى مكتبي، كانت «مريم» بصوتها الدافئ:

- أين أنتَ؟

- للتوِّ وصلت إلى مكتبي.

- كيف الحال، كيف كانت ليلتك، هل نمت جيدًا، هل فطرت، هل أغلقتَ باب الدار جيدًا؟

- نعم، نعم، نعم... كل شيء نعم، ونعم، ونعم، أحبكِ سيدتي، أعشقكِ، أشتا...

قُطع الاتصال..

جلست إلى مكتبي، عاودت الاتصال بـ «مريم»:

- كل الأمور ممتازة. كيف أنتِ؟ كيف الحال؟ هل نمتِ جيدًا؟ كيف هو فطورك؟ كيف هي أم «مرهون»؟ كوني حريصة عليها، هذه المرأة أمانة بعنقك يا «مريوم»، أمك، هي أمُّنا معًا.

- يبدو مزاجك هذا الصباح رائقًا، أخبرني عن ذلك؟

- لا أدري، أشعر بالسعادة لأنني وجدت مخطوط رواية المرحوم، والآن لا بُدَّ من إعدادها وإرسالها إلى دار النشر، وتكون أول رواية تصدر له بعد رحيله، أفكِّر يا «مريم» بكتابة مقدِّمة لها..

قاطعتني بصخبٍ:

- لا يا «سعيد»، إياك أن تفعل ذلك، إذا كنتَ تحترم روح الفقيد، فعليك أن تنشر الرواية كما هي من دون أيَّة مقدِّمة، هل تذكُر أنَّه كان يأبى أي مقدِّمات يكتبها أحد من الناس لأعماله التي نشرها سابقًا؟

- شئت أن أقول لك بأنني..

قاطعتني مرَّة أخرى:

- لا تقل شيئًا، اسمع نصائح حبيبتك «مريوم»، كتابتك مقدِّمة لهذه الرواية يعني استغلالك لموته، هذا ما سيقوله الناس عنك، إياك يا حبيبي أن تشط، فأنتَ لست بحاجة إلى ذلك.

أحبُّ «مريم» عندما تناديني، وهي جادة، بكلمة «حبيبي»، أشعر بالسعادة لسماع هذه المناداة الشاعرية الرقيقة، تقولها لي في الشهر ألف مرَّة ولا ملل، ومن دون أن تكون مجرَّد لفظة فارغة، غالبًا ما تقولها بإحساس دافئ مُضاء بدلالات غنجة..

آه..، تذكَّرت، ربما تكون هذه الـ«مريم» في شوقٍ إلى حضن زوجها؟

قد يكون ذلك ممكنًا؛ فمنذ وفاة «مرهون» وهي هنالك في بيت والدته، لم تنم منذ أيام سوى أوقات متقطعة قليلة..

كم أنا حمار وبليد.. ثمَّ إنَّها قالت لي: «حبيبتك مريوم»، وهذه كلمة السر بيننا عندما يأخذها الحنين إلى حفلة غير هادئة في سريرنا المشترك أقطف عبرها شيئًا من ثمار جسدها الناضجة..

آهٍ.. كم أنا غبي هذا الصباح! لكن لا بأس، لأكتب لها رسالة أعتذر بها عن غبائي وبلادتي..

كلا، لا أعتقد أن «مريم» يجتاحها عصف الرغبة الآن وهي تعيش مأساة ما مرَّ..

فعلًا، يا لغبائي وحماقتي! هي فقط تريد تذكيري بأنّها ما زالت على قيد الحياة، وأنَّها ما زالت «مريوم» حبيبتي الغالية، وكأنَّها تريد أن ترسل لي نداءً من نداءاتها العاجلة كونها أنثاي الأولى والأخيرة..

لأكتب رسالة لها، أقول فيها: «إنني لكِ أبدًا يا حبيبتي»، فمهما كانت ظنونك بائسة وغير مصيبة يا «سعيد»، أرى زوجتك «مريوم» بحاجة إلى غراميات من هذا النوع، فهي امرأة رومانسية تعشق الوجود الناعم كما تردِّد دائمًا.. آه يا «سعيد»، لو كان الوجود الناعم يُباع في الأسواق، لكنتَ اشتريت لها طنًّا منه، لا، فهذا قليل جدًّا، ثلاثة أطنان أفضل، مَنْ يعلم، ربما أسعار الوجود الناعم سترتفع

قريبًا كما هو حال النفط والبترول، ولِمَ لا؟ «يا لكِ من رائعة يا عاشقة الوجود الناعم».

كنتُ في كلام مع نفسي.. جاءني صوت «عادل»:

- أستاذ «سعيد»، يا أستاذ «سعيد»..

- نعم، نعم «عادل»، ماذا تريد؟

- أين أنت يا رجل، أين كنت؟

- أنا هنا، جالس أمامك، ألا ترى؟

- أقصد إلى أين وصلت؛ كنتَ شارد الذهن يا رجل، ما بك؟

- أجل، نعم.. نعم يا «عادل»، كنتُ منشغل التفكير بزوجتي..

- عسى ما شر..

- خير، ماذا تريد؟

- السيد المدير العام يطلبك في مكتبه..

# 6

شعرت بالدوار وأنا في الطريق إلى بيتي، كانت الأصوات تكتظ في رأسي، لم تكن شوارع المدينة بريئة كما كانت في الأمس القريب؛ أوساخ، قمامة تتناسل بحرية في المكان، ومنعرجات لعينة، ومطبات، وقواطع طرق، كنت أسأل: «يا خالقي ماذا يجري؟ لمَ هذا الدمار والموت اليومي البشع؟»

لا جدوى من الأسئلة، إنه القدر البغيض، أحاطتني سيارات الشرطة والجيش من كل جانب، أمروني وغيري من سائقي السيارات على جنبي سيارتي بضرورة التوقف فورًا عن الحركة، فثمَّة عبوة ناسفة تحت رصيف أعور، ها هي الكارثة، كم من الوقت نحتاج لرفع العبوة الرجيمة عن مكمنها الملعون؟

لا بأس، إنَّها لم تنفجر، لم يمت أحد، هي عبوة عاق، خانت ثلَّة الأوغاد الذين صنعوها، والسفلة الذين دسوها في أحد جحور هذا الرصيف المسكين الذي أهملته بلدية العاصمة منذ عهد غابر.

جاء فريق تفكيك العبوات.. في تلك اللحظة، قررتُ أن أستمتع بعملهم المجهري الذي غالبًا ما يوصف بالبطولي، وهو كذلك حقًّا

لما فيه من مخاطرة قاتلة.. عاينتُ أحدهم يتقدَّم نحوها، بدا كالأسد الصؤول وهو يُقبل على ذلك اللغم الملعون، ها هو يبتسم لمن يرمقه بعين الخوف عليه من مراقبي المشهد، يجلس عند الرصيف الأعور بحذرٍ شديد التيقُّظ، يستكشف حالة العبوة الخائبة من كل الجهات، يمدُّ أصابعه نحوها برفق، أراه جيدًا وهو في مكانه، أقول: «يا رب احفظه»، أتوسَّم بالرحمن خيرًا، ها هو يمسكها بحذر، يسحبها من كهفها القذر حزينة باكية نائحة بأنَّها لم تغرس حشواتها النارية السامة في جسد طفل أو امرأة أو شيخ مروا من جانبها، ربما كنتُ أنا ضحيتها أو غيري، لكنها الرحمة أنقذتنا..

ها هو الشرطي الصنديد يضحك منتشي السريرة كونه أبطل مفعولها: «كم أنت رائع يا رجل!».

حدَّثتُ نفسي بصوتٍ خفيضٍ إعجابًا ببطولته، ها هو يجرُّ العبوة من أذنها، يحملها بين يديه وسط تصفيق جميع مَنْ كان يرصد الحالة بخوفٍ وترقُّبٍ على حياة الضابط المنقذ..

أومأ لنا كبير الشرطة والجيش بأن ننطلق صوب مجهولٍ آخر..

# 7

راقـت لي فكرة الذهاب إلـى بيت أم «مرهـون»، لكنني عدلت، وبـدلًا عـن ذلـك توجَّهـت إلـى منزلي لكـي أبـدأ بقـراءة مخطوط الرواية..

فـي طريقي إلى هنـاك، ومض في ذهني عنوانهـا «ينحني الصابر للوجع»، وبقيت أعيد لفظه بصوتي:

«ينحني الصابر للوجع»،

«ينحني الصابر للوجع»،

«ينحني الصابر للوجع»،

حتى ترسَّخ في ذهني أكثر، وأخذت أتأمَّل دلالة كينونته كقارئ، تسـاءلت: «من أيـن جاء مرهـون بهذا العنـوان؟»، «مرهون يعشـق التنـاص»، هكـذا يقـول النقَّاد عنـه، خصوصًا أولئك الذين درسـوا أغلب سردياته القصيرة والطويلة التي ظهرت تباعًا.

تناولـت مخطـوط الرواية قارئًا له حتى إنني نسـيت خلع حذائي المعفر بأتربة شوارع العاصمة، كان شوقي عارمًا للنظر في العنوان،

نعم، إنه هو نفسه: «ينحني الصابر للوجع»، «ينحني الصابر للوجع»، «ينحني الصابـر للوجع»، حتى صار همِّي معرفة أصل هذا العنوان، فهـو ينزف شـعرًا، بـل ربما هو الشـعر/ الشـعر، هل لي الاسـتعانة بصديق؛ شاعر أو ناقد أو قارئ شعر؟

أنـا على يقين من أن «مرهون» كان يقرأ الشِّـعر أكثر من السَّـرد، «ولكن بأي الأصدقاء أتصل؟». سألت ذاكرتي.

داهمنـي النعـاس، لكن عنـوان الرواية «ينحنـي الصابر للوجع» تمكَّن من طرده وهو العالق بقوة في ذهني، اتصلتُ بـ «عبد الرحمن الشـكري»، قارئ الشـعر الأوُربي المعاصر، وسـألته عن الموضوع من دون منحه أي معلومة عن رواية «مرهون»، فقال لي:

«أتذكَّر أنني قرأته في قصيدة لشـاعرٍ ما قد تكون مترجمة أو غير مترجمـة أو قرأهـا لي أحد الأصدقاء بلغتهـا الأصلية، ولكن مَنْ هو الشـاعر؟ أقترح عليك يا سـعيد أن تسـأل صديقنا حسـن المزهون، فهو قارئ عرم للشعر غير العربي».

يسـكن المزهـون فـي مدينة بابل جنـوب غـرب العاصمة، لكن الطريق إلى بابل يثير في نفسـي الأسـى، بل والخـوف أيضًا: «كيف أصل إليك يا حسن يا المزهون، كيف الوصول إليك يا حسن وبيننا اللطيفيـة وعصابـات جـزِّ الأعناق من الذين ينتشـرون في بسـاتينها هناك كالغربان العطشة لدماء البشر؟».

قـرَّرت البحـث عن وسـيط، سـأتصل بعمِّـي أبو «مريـم»، والد زوجتي، ليذهب إلى منزل المزهون.. ويسأله عن الموضوع.

اتصلت به، قال لي: «إنه رأى المزهون صباح اليوم، كان مريضًا، وسألني عنك وعن المرحوم مرهون، وقال: إنه سيكتب قصيدة رثاء لموت هذا المبدع الكبير».

وجدتُ في هذا التعاطف مخرجًا للأمر، عمِّي أبو «مريم» بطيء الحركة، قليل المشي، لا يخرج كثيرًا من منزله، يخاف من العبوات الناسفة والمفخخـات والانتحاريين، لكنـه الرجل الشـهم عندما تطلب كرمه.

فـي تلـك اللحظات، شـعرت بالتعـب، قلت لنفسـي: «لو أدسُّ جسدي بين شراشف مرقدي سيكون أفضل لي لكي أرتاح من عناء يـومٍ ثقيل الهـمِّ من أيام حياتنا التي أمســت تقضمنا لحظة إثر أخرى من دون حياء أو أسـف..».

مـرَّة أخرى، دقَّقـت في عنـوان الروايـة، أردت الاطمئنان، فكان هو نفسـه: «ينحني الصابر للوجع»؛ لكنها الأسئلة عادت من جديد: «مـن هـو الصابر يا مرهون؟ ما هـو الوجع يا مرهـون؟ لماذا ينحني يا مرهون؟».

سبقتني دموعي، ولا أعرف لماذا شعرتُ بالحاجة إلى البكاء في تلك اللحظة؟ في تلك اللحظة قلت: «طوبى لك يا مرهون، واللعنة على كل ما يجري لنا..».

# 8

رنّ جرس هاتفي، كانت الساعة الثامنة مساءً، تركت مرقدي خلفي، لا ضوء سوى الظلام وهو يخنق أنفاسي ومنزلي، دخلت الحمَّام لأرشَّ ماءً على وجهي، لكنه الضوء عاد لينتصر على العتمة المقيتة، يا لها من رحمة في عالم لا رحمة فيه! وهل هناك أرحم من أن يأتيك الضوء من الشركة الوطنية؟ أجبت: «أكيد، لكن هذه الرحمة لن تدوم، نصف ساعة أو أقل، تلك هي عطية الأقدار حتى ينتعل الضوء مداسه ويقفل متواريًا عنًّا ليحلَّ ضيفًا عند غيرنا».

في هذه الأثناء، تذكَّرت أنني لم أتواصل مع «مريم»، فاتصلتُ بها، لكنَّها لم ترد، اتصلت ثانية وثالثة، لا ترد، رميت هاتفي على أريكة الصالة بعد أن بصقت على هامته.. حتى أنت أيها الصغير الجديد على حياتنا لا تريد أن تحقِّق أمنية رجل يريد سماع صوت أم عياله؟ كم أنا أهبل! أي عيال؟ أين هم العيال؟ «مريم» لا تحبل.. لكنها ستحبل يومًا، أنا رجل معطاء، وعطائي الساخن لزج جدًّا، بل «دبق»، كما يقول القاص «محمَّد مزيد» في أحاديثه اليومية بمقهى حسن عجمي، هي تقول ذلك دائمًا.. أكيد تراها يا «سعيد» ستحبل

وتجعل بنات الجيران يرقصن بدفوف الغيرة.. ولو رُزقت بصبي تراني سأسميه «مرهون»، وليخسأ الموت، نعم لتخسأ أنت أيها الموت، لتخسأ يا ثقيل الظل.. لتخسأ أقول لك.

آه.. ماذا دهاني؟ من أين لي هذ الغلو؟ ما لي أنا والموت؟!

أتمتع كثيرًا عندما أدخلِ مطبخي - أو مطبخنا، كما تقول «مريم» - أشطف الصحون، أُعمِّر إبريق شاي، إبريق شاي إنساني، لكنه ليس جدليًّا، ولا ماركسيًّا، ولا براجماتيًّا، ولا حتى فرانكفونيًّا، إنه إبريق شاي إنساني والسلام..

كانت تلك مُداعبات «مرهون» عندما يأتي إلى منزلي لنستمتع بالأحاديث معًا ليس بعيدًا عن رائحة الشاي التي تُضفي على اللقاء عطره المداعب..

رنَّ هاتفي اللعين، حسبته عمِّي، والد زوجتي، لكنها ابنته الغالية «مريوم»:

- أهلًا يا روحي، كيف حالك؟

- أنا بخير، اليوم تعبت كثيرًا..

- لماذا؟

- جاءتنا مُعزِّيات من مدينة الكوفة، أقصد نساءً وليس رجالًا، نساءً كثيرات، كوفيَّات من قريبات أم «مرهون» البعيدات، ولكن هل تعلم يا «سعيد»؟

- ماذا أعلم؟

- واحدة من الزائرات خطبتني من أم «مرهون»!

- ماذا؟ خطبتك؟

- أي وحياتك يا «سعيد»، ووصفتني بالحلوة والحبابة..

- طبعًا يا أميرتي، أنتِ حلوة الحلوات، وأميرة الأميرات، ورائعة الرائعات، أنتِ زوجة «سعيد الدهان»، أنتِ الحبابة..

- «سعيد»، لا تسخر مني رجاءً، إعجاب المعزيات بي أزال عني تعبي..

- لا أبدًا، أنتِ تعرفين أنكِ قمر «سعيد»، وأبو «سعيد»، وعشيرة «أبو سعيد»، لكنني اليوم مُتعب جدًّا.

- لماذا؟

- أخبرتك سابقًا، بأن عنوان رواية مرهون هو «ينحني الصابر للوجع»، وهذا العنوان أذلَّني، أعتقد أنه عبارة عن مقطع شعري من قصيدةٍ لشاعرٍ ما، اتصلت بأصدقاء وسألتهم عنه فلم أجد جوابًا، حتى إنني اتصلت بوالدكِ، وطلبت منه الاتصال بصديقنا «حسن المزهون»، أنتِ تعرفينه..

- ما الذي تريده من «المزهون»؟

- قلت مع نفسي: ربما يعرف اسم الشاعر الذي كتب هذا البيت الشعري.

- ولِمَ لا تسأل زوجتك، أنا أعرف مَنْ هو الذي كتبه!

- بمعبودك!؟ أخبريني لكي أرتاح من هذا العناء؟

- هل تذكُر يوم كنَّا مع المرحوم «مرهون» في شارع المتنبي، هل تذكُر أنه قال لصديقه المترجم الذي يعيش خارج الوطن وجاءه بعد غياب، لا أتذكَّر اسم المترجم، بأنه سيختار مقطعًا من قصيدة لشاعر نمساوي أو ألماني كعنوانٍ مقترحٍ لرواية يكتبها؟

- نعم، نعم، نعم يا «مريم»، أنتِ عظيمة، أما أنا فحمار؟

- لا يا حبيبي، أنت لست حمارًا، أنت زوج «مريوم» الحلوة، كيف تقول عن نفسك ذلك؟

- وأنتِ أيتها الرائعة زوجة «سعيد» الذي لم ينتبه لذاكرة زوجته المتوقدة، ولكن هل تذكرين لي اسم الشاعر؟

- بماذا ينفعك اسمه، تراه شاعرًا وكفى؟

- بربكِ يا «مريم»، أرجوكِ، هل تعرفين اسم الشاعر؟

- قل لي أولًا: هل تهواني؟ هل أنا عروسك الحلوة إلى الأبد؟ هل أنتَ راضٍ عني؟ هل تحبُّ الأشياء التي أعطيك بعضها في أثناء..

- نعم، أشـهد بحبي لكِ، وأشـهد أنكِ عروسـي الأبدية، وأنا راضٍ عن طبخـك ونظافة منزلنـا، وروحك اللطيفـة، وألوانك الزاهية، وملابسك الشفافة، وأحبُّ كثيرًا تلك الأشياء التي.. التي..

قاطعتني:

- «تراكل»..

- ماذا؟

- «جورج تراكل»، ذلك هو اسم الشاعر.

- وكيف عرفتِ اسمه؟

- أخبرني به المرحوم «مرهون» نفسه يوم جاء بيتنا ليهدينا مجموعته القصصية التي صدرت آنذاك «غيوم رماديَّة».

- يا لكِ من عظيمة! أقصد امرأة عظيمة! كيف غاب عني ذلك، نعم اسـمه «جورج تراكل»، أتذكَّر ذلـك اللقاء.. أنتِ رائعة يا «مريم»، رائعة يا..

قُطع الاتصـال، انتهى الرصيد، حاولت التحقُّـق منه، انقطع تيار الكهربـاء، وصلتنـي رسـالة من «مريـم»، تقول: «عليـك أن تعترف بأنني ذاكرتك.. المخلصة مريوم»..

فكتبت لها: «أشـهد أنَّكِ ذاكرة الدنيا يا أروع امرأة فيها.. زوجك المخلص».

شعرت بالراحة، رغم الظلام الحالك الذي حلَّ ضيفًا لئيم الوجه في تلك اللحظة، كان يجدر بي التوافر على طاقة كهربائية، لكنَّني وجدتها فرصة لأستلقي على أريكة الحديقة، فالظلام صار صديقنا الممل جميعًا، ورحت أفكِّر في حال اللحظة؛ لحظة رواية «مرهون»، يجب عليَّ الآن كتابة رسالة للناشر، أقول فيها: «إن الرواية قيد المراجعة النهائية، وستصلك عمَّا قريب كاملة».

أخذني الحنين إلى «مريم»، يبدو أن الظلام أضاء شوقي لها، «مريم» تعمل من الصباح حتى المساء تحت الأضواء؛ ضوء النهار، وضوء المصابيح، لكنني لا أعرف لماذا، ولمَّا تشتاقني وأنا إلى جانبها في فراشنا، تطفئ المصابيح، وتدسُّ رجلها بين فخذيَّ أولًا لكي تشعل حرائقي، صحيح مَنْ قال: «لكل امرأة نزواتها في لياليها الحمراء»، أقصد طرقها، فجسدها رأسمالها، إنه مدخلها إلى عوالم الرجل السحرية، و..

عاد ضوء الكهرباء، عاد الضوء، أصبحت الصالة مُضاءة، وكذلك المطبخ والحمَّام والحديقة، آن أوان المواجهة الكبرى، أقصد البدء بقراءة مخطوط «ينحني الصابر للوجع»، فالعنوان وقد عرفنا «مرجعيته»، كما يقول النقَّاد، وعرفنا أساليب «مرهون» في الكتابة التي يمارسها عَبْرَ شرعية التناص، وما عليك الآن يا «سعيد»، يا زوج «مريوم» المليحة، سوى أن تبدأ القراءة، ولكن ليس من دون «قوري» شاي يوقظ البصيرة والخيال.

أخذت أقرأ عنوان الرواية، وكأنني اكتشفت سره، ولكن «العبرة أو الحكمة»، كما كان يقول أبي، رحمه الله: «ليست في العناوين إنما فيما وراءها».

وضعت صفحة العنوان جانبًا، قرأت الإهداء: «إلى أمي.. لا ترحلي عنِّي.. سامحيني..»، آهِ يا «مرهون»، ها أنتَ رحلت عنها إلى هناك.. رحلتَ وتركتها وحيدة، أنتَ الذي رحلت، لماذا هذا الإهداء؟ لماذا أمكَ؟ لماذا الرحيل.. لماذا؟

أربكني هذا الإهداء، أخذت أتضاءل صوب داخلي، نحّيت الأوراق دامع العينين، خرجت إلى الحديقة لكي تهطل دموعي أكثر علّها تحرّرني ممّا أنا فيه، اتكأ وجهي ذليلاً على جذع النخلة العالية، أخذت أبكي..

لماذا هذه القسوة يا مرهون؟ لماذا؟

ها أنتَ رحلت عنها قبل أن ترحل هي عنك، طعنتها في الصميم يا أخي وصديقي الغالي، أما كان لك التريث قليلًا؟

سامحني إذ أضعكَ الآن في مقام الرجل المُعاتَب وأنتَ هناك.. هناك في العوالم الخالدة وقد حرَّرت نفسك من كدِّ الدنيا، من عنائنا نحن الذين يرحل أحب الناس عنَّا إلى غيابٍ قاسٍ..

تركتُ الحديقة شطر صومعة نومي، رميت بجسدي على سريري حزين الحال بأمل العودة إلى قراءة المخطوط ثانية، لكنني

لم أجد نفسي إلّا في صباح يومٍ تالٍ على وقع أصوات انفجارات، وانفجارات، وانفجارات تتناهى إلى مسامعي تردُّدات أصواتها كالزعيق المخبول..

«أيُّ قهرٍ مبتذلٍ هذا الذي لا يفتأ يُداهمنا في كل لحظة؟ يا تُرى، مَنْ هم الذين سيرحلون هذا الصباح؟ أو مَنْ هم الذين رحلوا فعلًا هذا الصباح؟ مَنْ هم الصابرون الذين انحنوا للوجع القاهر هذا الصباح؟».

# 9

ســرتُ إلى عملي حاملًا مخطوط الرواية، شعرتُ بأنني أرتكب حماقـة باليـة؛ فماذا لـو أصاب سـيارتي وبدني أحـد الانفجارات؟ كانت أسئلة حائرة قلقة في آنٍ واحدٍ..

في طريقي إلى مكتبي، سلَّمني «عادل» مجموعة مغلَّفات، قرأتُ الأسماء من دون أن يكون لـ «مرهون» أي نصيب فيها.

شـعرت بالحاجـة إلـى قـراءة مخطـوط الرواية. تركـت صفحة العنـوان، وكذلـك صفحـة الإهـداء، وبـدأت بقراءة الفصـل الأول لأفنـي قرابـة سـاعتين ونصف السـاعة من دون دخول أي شـخص إلـى مكتبـي، لا أحد مـن الموظفين جاء إلـى عمله اليـوم، يبدو أن الانفجارات الدموية منتشـرة في كل أحياء العاصمة، وجدتها فرصة لكي أمتشق سيجارة أو أكثر لأحصل على سكينة ما تُريحني من آلام أثارتني وأنا أفهم مضمون حكاية الفصل الأول.

أمضيتُ قرابة نصف الساعة في تلك الاستراحة، أحرقت خلالها أربع سـجائر على بكرة أبيها، عدتُ إلـى مكتبي لأبدأ بقراءة الفصل

الثاني، لكنَّ عيني سقطتا على ملفوظ «الفصل الثالث»، قلت لنفسي: «يا للهول! أين ذهب الفصل الثاني؟».

ناديت:

- يا «عادل».. «عادل».. هل دخل أحد ما إلى غرفتي؟ هل جلس أحد إلى مكتبي؟

- كلا يا أستاذ «سعيد»، أنت تعرف أننا، أقصد أنت وأنا، فقط في الوزارة، جميع الموظفين عالقين في زحمة الطريق.

- مصيبة، مصيبة يا «عادل»، كانت هنا بعض الأوراق المهمة على مكتبي، لكنها الآن منقوصة العدد، أقصد مفقودة، أين ذهبت؟

- لا أعرف يا أستاذ «سعيد»..

صرت ألوم نفسي: «الويل لك يا سعيد، هل أضعت الفصل الثاني، دعني أدقِّق في كل الفصول؛ الفصل الأول قرأته وها هو، والثاني هرب مني، والثالث موجود، والرابع كذلك، والخامس مفقود. يا للهول، ها هي الكارثة، أين بقية الفصول؟ هل نسيتها في المنزل؟ كلا، كلا، هي كذلك بحزمتها ولم ينفرط مني أي شيء منها، الويل لك يا سعيد، الويل لحظك الأغبر، الوي..».

دوي انفجارات متتالية رجَّت أمكنة لا أعرفها، دوي آخر وآخر أيضًا: «يا جبناء، ما الذي تريدونه منَّا؟»

# 10

وصلتُ إلى منزلي بعد أربع ساعات ونصف الساعة، دخلت إليه كالمجنون، لم أجد شيئًا.

أين ذهبت الفصول الضائعة يا «سعيد»، أين؟ كلا هي ليست ضائعة، ربما أكون نسيتها في مكانٍ ما، الحمَّام، المطبخ، حجرة النوم، الحديقة، المكتبة، المرحاض، الويل لي، أين ذهب الفصل الثاني، أين ذهب الفصل الخامس؟ أين اختفيا؟

اتصلت بـ «مريم»، أخبرتها بما جرى، طلبت منها أن تسأل أم «مرهون»، فقالت: «نائمة»، طلبت منها البحث في مكتبة «مرهون» عن أوراق ما ربما تجدها تحت سريره، قالت: «الغرفة مقفلة»، سألتها البحث عن أيِّ أوراق مكتوبة بأصابع «مرهون» في الصالة، في أي مكان، في أيِّ زاوية.

اتصلت «مريم» بعد ساعة وهي تقرأ لي تباعًا عناوين بضع أوراق عثرت عليها، فلم تكن ما أريد.. قلتُ لها: «ابحثي جيدًا يا مريوم أرجوكِ، أيقظي أم مرهون من ضحوة نومها، اسأليها عن الموضوع،

وادخلي معها إلى مكتبة مرهون لعلَّكما تجدان شيئًا ممَّا أفقده الآن من الرواية؟»

أمضيت مسائي جيئة وذهابًا داخل الصالة، في الحديقة، أذهب إلى المرحاض، أخرج منه إلى الحمام، أصعد إلى سطح الدار كأنني مجنون، خصوصًا عندما يغيب ضوء الكهرباء عن المنزل والحديقة والشارع والحي.. نسيت طعامي ونكهة الشاي، انقضضت على علبة سجائر كاملة، وتناولت الثانية..

يا للهول! أخشى أن أكون أنا الذي تفلتت منه الفصول إلى ضياع؟ كلا، نعم، كلا، كلا، الفصول هنا منذ أخرجتها من الصندوق، إنها الرزمة نفسها..

تراني أنتظر مكالمة من «مريوم»، وأنا أعرف أنَّ رقاد أم «مرهون» ثقيل، فهي امرأة عجوز، تنام مبكرًا وتصحو باكرًا.. كنت أنتظر خبرًا عن الموضوع ولكن من دون جدوى، أعدت تقليب أوراق الفصول.. نعم، الفصل الثاني والفصل الخامس هربا من الملف، ضاعا أو سُرقا، كل الاحتمالات ممكنة في زمن فقد فيه اليقين كبرياءه، والإنسان كرامته، والذاكرة نصاعتها..!

رنَّ هاتفي الجوال:

- نعم «مريم»، هل عثرتِ عليهما؟

- سـألتُ أم «مرهون»، فقالت إن الأوراق كانت في المستشـفى مع «مرهون» يوم وفاته، وسلَّمها لها الطبيب عندما كانت تبكي ولدها لحظة سماعها نبأ وفاته.

- هـذا يعنـي أنَّ الفصلين، ربمـا فُقدا في المستشـفى، الويل، الويل لي.. أريد الذهاب إلى هناك.

- أنـت مجنـون، هنـاك منع تجـوال، الصبـاح رباح يا «سـعيد»، لن تذهـب الأوراق، لن تضيع، ربما ما زالت في المستشـفى، اهدأ يا رجل..

- لا بـأس يا «مريوم»، الصباح رباح، أشـكرك عزيزتـي، أنا متعب، أحتاج إلى هجعة نوم مريحة.. إلى اللقاء.

تعيسـة كانـت ليلتي، لم أنـم، أمضيتها والأرق يحتفل شـامتًا بي حتـى زعـزع كياني، وجـدتُ من الأفضـل أن أرتمي علـى مهادي، والصباح رباح كما قالت «مريم»..

# 11

أيقظني رنين هاتفي الخلوي، سألتني «مريم» عن حالي في ليلتي التـي مضت، أخبرتها بأنَّني أكابد صداعًـا حادًّا، قدَّمت لي وصاياها الطيبة المعتادة، وحدَّثتني عن حوارها الواضح مع أم «مرهون» حول صفحات الرواية، وتأكيدها لها أنَّ الملف كله كان بحوزة «مرهون» في المستشفى، وهذا ما زاد حماستي لكي أنطلق صوب المستشفى مستعجلًا خطاي..

أحرقتُ ثلاث ساعات من الوقت حتى وصلت إلى هناك، ذهبت فورًا إلى القسم الذي كان «مرهون» راقدًا فيه، سألتُ الموظفين عن الطبيـب «أحمد الجبوري» الـذي كان يُعالج المرحـوم، فقالوا لي: «سـيأتي بعد ساعتين»، ذهبت إلى السرير الذي كان عليه «مرهون»، وجدت شـابًّا للتو لفظ أنفاسه الأخيرة: «يا إلهي! أكل مَنْ يرقد على هذا السرير يرحل!»

كلا، أصبـح المـوت معتـادًا، رخيصًـا، لا ثمـن له، أولاد الشـر يذبحـون النـاس علـى الهويـة والمذهب والديـن والثقافـة والعرق والأصل.. أيها الشر الرجيم ما الذي تريده مني ومن غيري في وطن

يتهـاوى؟ اللعنة عليـك، اللعنة، اللعنة عليكم، لقـد بصقتم في نعمة وطنكـم، في صحنـه وفي ماعونـه، جميعكـم نـذل، جميعكم خائن لقيمة الإنسـان، أيها القتلة والذبَّاحون والمفخخون، أنتم خونة كبار لبنيان الله في أرضه، عليكم اللعنة.

لكـي تنتظر في مستشـفى ما، عليك أن تبكي ألـف مرَّة، ففي كل خمس دقائق تودِّع راحلًا وتسـتقبل جريحًا، وتبكي لعويل الأمهات الثكالى بموت عزيز عليهن..

سـألتُ إحـدى العاملات في المستشـفى عـن الدكتـور «أحمد الجبوري»، فقالـت لي: «إنه جاء قبل لحظات، وهو الآن في مكتبه».

هرعـت إليه، فلم أجده هناك، وجدتُ عند بابه امرأة تلطم خدها وتصيـح: «وليدي راح يموت»، سـألتها: «لمـاذا؟»، قالـت: «يحتاج إلى دم»، قلـت لها: «هيا.. انهضي؛ لنذهب إلى المختبر، وإذا طابق دمي دم ابنك سأتبرَّع له».

ذهبنا معًا صوب المختبر، كانت في أثناء ذلك تُقبِّلني من رأسـي وتشـكر فيَّ همتي ومروءتي حتى أخذوا عينة من دمي، وجاءوا بعد عشر دقائق ليقولوا لي: «دمك مطابق»، فقلت: «هيا إلى التبرُّع».

شعرت بالارتياح أن دماءنا تذهب إلى بعضنا ولا يبتلعها أسفلت الشوارع والأرصفة أو يحرقها بارود المفخخات الفاتك..

ومـن بعيد لمحتُ الدكتـور «أحمد الجبوري»، جاء يسـأل عني بوصفي أحد المتبرعين للتو بكيس دم إلى صبي يحتاجه..

شـكرني، وأثنـى على إنسـانيتي، فقلت لـه: «أنا بحاجـة إليك يا دكتـور لأمر شـخصي»، فذهبنا معًا إلـى مكتبه، وأخبرتـه بما جرى لفصول الرواية، فقال:

- أتذكَّـر ذلك، أنـا أعطيـت الأوراق جميعها إلى والـدة المرحوم، لكـن موظفًا لدينا هـو الذي جاء بتلك الأوراق إليَّ، وأظن اسـمه «أبو نادية»، لكنه الآن في إجازة..

طلبـت من الدكتـور عنوانًا أو رقـم هاتف يصلنـي بالرجل، قال لـي: «إنه رجل مُسـن، أقتـرح أن أبحث لك عـن عنوانه لكي تذهب إليه..».

فوافقـت علـى الفـور، وأخذت العنـوان من زميل لـه في العمل بواسـطة الدكتور «الجبوري»، شكرته وشكرني، وتوجهت لأبحث عنـه، «أبو نادية» الكنز القادم الذي ربما يحتفظ بفصلَي الرواية، وأنا أسـأل: «كيـف لي الوصـول إلى أبي ناديـة؟ هل أذهب إليـه الآن أم غدًا؟»

رأيـتُ من الأفضل، الذهـاب إلى بيت أم «مرهـون» لكي أراها، وبالمرَّة أرى «مريم»، «تلك فكرة صائبة يا صديق مرهون الوفي..»، قلت شادًّا عزيمتي.

# 12

لمَّـا دخلت إلـى بيـت أم «مرهـون»، اسـتقبلتني هـذه المنكوبة برحيل وحيدها الذي تبقَّى لها من رحمها بوجهٍ بشـوشٍ، اسـتغربت الأمر، طلبت مني الجلوس في المطبخ، وقالت: «طبخت لك اليوم ما تحبه من طعام؛ الباذنجان باللحم المهروس».

دُهشـت لكلمة «طبخت لك»، فالمعتاد أن أم «مرهون» لا مزاج لها في الطبخ منذ وفاة ولدها.. سألتها:

- أين «مريم»؟

- نائمة في غرفتي..

لمحتها تبتسـم وهي تضع الـرُّزَّ في الصحن، شـعرت أن أمرًا ما يجري هنا، لكن أم «مرهون» داهمتني بسؤالٍ أربك موازيني كلها:

- «سعيد»، لو رُزقت بولدٍ فبماذا ستسميه؟

قلت لها بسرعة فائقة:

- «مرهون».

وضعت الصحن جانبًا بسرعةٍ فائقةٍ، والتفتت نحوي لتضمني إلى صدرها، وأخذت تبكي باسمة الوجه:

- ربٌّ يُعلي من شأنك يا بني، اذهب إلى «مريم» فهي حبلى..

- حامل، حبلى، ماذا تقولين يا أم «مرهون»؟

قبَّلتها من رأسها، وقلت لها والبكاء سيدنا في تلك اللحظة:

- الله يبشرك بالخير، سيكون «مرهون» الصغير ابنك وليس ابننا فقط، أنا و«مريم».

- يكرمك الرحمن بالخير.. اذهب إلى «مريم»، أيقظها، كانت تود إخبارك، لكنها نامت، تراها متعبة.

دخلتُ على «مريم»، وجدتها مستلقية قريرة العين، شعرها المبذول الجدائل يغطِّي نصف وجهها بعذوبة نشوى، وكفها اليمنى على بطنها كأنَّها تطمئن على جنينها..

وضعت قبلة رقيقة على رأسها، ومثلها ناعمة على خديها، رفعتْ محياها البهي نحوي والنعاس يغالبها:

- مؤكَّد أنك عرفت الخبر؟

- مُبارك لنا هذه الرحمة، حبيبتي وغاليتي وعمري وروحي.. اتفقنا، أنا وأم «مرهون»، على أنه إذا رُزقنا بولدٍ فسوف يكون اسمه «مرهون».. سيكون ذلك مبهجًا لها، أليس كذلك؟

وجدتها وقد غمرها الفرح، وسـرعان ما راحت تضمُّ رأسي إلى صدرها بحنوٍّ وطمأنينة لم أعهدهما منها سـابقًا، كنَّا ننتظر ذلك منذ سنوات، وها هو الوعد يفي بكرمه.. قلت لها:

- تعالي لنخـرج إلى الصالة لكي أراكِ وحميلكِ أمًّا واعدة، انهضي أميرتـي، فأم «مرهون» طبخت لنا اليوم ما نحب ونشـتهي ابتهاجًا بحملكِ الذي انتظرناه طويلًا..

لأول مـرّة، ومنـذ رحيـل «مرهـون»، وجـدت والدتـه تبتسـم وتضحـك، ربما تُجاملنا، لكنني أعتقـد أن فرحها حقيقي وهي التي تعـرف كـم انتظرنا مولـودًا، أنا و«مريم»، وها هو فـي رحم أمه ينمو ولكن على وقع أصوات الانفجارات والعبوات الناسـفة، ولا بأس، فالله الذي خلقه يحميه ويحمينا من أي مصائب محتملة..

بعد جلسة الطعام المُلذ، أخذتنا حكايات أخرى، إلا أنني عدت إلى موضوع مخطوط الرواية، شرحت لأم «مرهون» التفاصيل حتى أخبرتني بأنَّها متأكِّدة من اسـتكمال «مرهـون» كتابة فصول الرواية، وأنَّها تتذكَّر تلك الليلة التي سـهرت مع ولدها الراحل، وقالت: «أنا رقَّمـت صفحاتها، هـو طلب مني ذلـك، وأنا أعرف أنَّهـا اكتملت، حتـى إن مرهـون كان يقرأها وهو على سـرير المستشـفى، وأخبرته بـأن يترك قراءتها حفاظًـا على صحته، لكنَّه رفـض وقال لي: قرأتُ

كل الفصول سوى ثلاث صفحات أخيرة، الرواية كاملة يا أمي، لقد أهديتها لك يا غالية».

سـألتُ «مريـم»، فيما إذا كانـت تريد العـودة إلى منزلنـا، لكنَّها أخبرتنـي بـأن والديها سـيأتيان غـدًا إلى بيـت أم «مرهـون» لتقديم العزاء، وقالت لي: «من الضروري أن تكون موجودًا».

اتفقنا على أن أعود إلى منزلي وحيدًا في ظل شعور بالأبوة غامر هو الأول من نوعه نما في روحي ونفسي وكياني وضميري.

يا للوعد! شخص يغيب وآخر يحضر أو سيحضر قريبًا، «مرهون» الكبير رحل، و«مرهون» الصغير سيأتي..

# 13

في طريقي إلى منزلي، شعرتُ بالحاجة إلى الجلوس عند شفا النهر، أنْ أكون عند نهرٍ جارٍ في مساءٍ هائمٍ، كم أنا بحاجة إلى دفق الماء في نهر!

ذهبت إلى هناك والغروب قد حلَّ ضيفًا على المدينة الحزينة..

جلست عند حافة النهر متأمِّلًا ما يجري، أصوات الحيوانات المائية ونصف المائية تتعالى بخجلٍ وهي تمارس ألعابها النهرية المحبَّبة إلى نفسها، ربما كنتُ أنا الشخص الذي يخيفها أو يثير شهواتها اللعبية أو الجنسية! ولكنني شردت بأفكاري بعيدًا، وسرحت بخيالي إلى الوعد القادم، بدأت أفكِّر في عطيَّة الخالق لنا، أفكر في طفلنا الموعود الذي سيأتي كأيقونة أمل يقف بوجه أي غياب أبدي أحمق، وليُّ عهدنا المُنتظر «مرهون» الصغير.

يا إلهي اجعله ولدًا لكي يأخذ هذا الاسم، ليس لكي أغتبط أنا لوحدي، بل لكي يبعث السرور أيضًا في قلب أم «مرهون» المفجوعة بالغياب المتكرر..

رنَّ هاتفي الخلوي، كان عمِّي، والد «مريم»، أخبرني بأنه سيأتي غدًا إلـى العاصمة برفقة عمَّتي، وبارك لي حمـل «مريم»، وأخبرني بأنه التقى الشاعر «حسن المزهون»، وطلب منه الاتصال بي.

شـكرته على كل شيء أخبرني به، وعدتُ إلى مسائي المائي مع النهر، تدفَّأ صدري بدخان السجائر.

رنَّ هاتفـي مرَّة أخـرى، ما كنت أعرف صاحـب الرقم حتى قال إنه «حسـن المزهون»، تحدَّثنا طويلًا، وأخبرني بأن البيت الشـعري «ينحني الصابر للوجع» ورد في قصيدة للشاعر «جورج تراكل»، وأنه أحد أبيات قصيدته الشهيرة «في ألبوم الضيوف»، أو «الضيوف»..

شـكرته على ذلـك كثيرًا، لكـنَّ مكالمتـه أعادتني إلـى موضوع الروايـة ثانية حتى نسـيت أنني قريب من جرف النهـر الذي أخذت أمشي على طينه ويابسـته متأمِّلًا قضية غياب الفصلين عن مخطوط الرواية..

كنت أمشـي مـن دون وعـي بالمكان حتـى وجدت نفسـي عند الجسـر الذي يقطـع حافة ماء النهـر الجاري الذي يشـطر العاصمة الحزينـة إلـى صوبيـن، فعـدتُ أدراجي أمشـي عند الحافة نفسـها، أسـمع نقيق الضفـادع، أرى سـمكة صغيـرة تهرب من عمـق الماء إلى سـطحه، أضحك، أنتظر كرنفالها مـرَّة أخرى، لكنها تبدو ذكية، غطست نحو الداخل ولم تخرج..

تذكَّرت مخطوط الرواية، ليس لي سوى الحاج «أبو نادية»: «أين أنتَ يا رجل، هل أجد عندك ضالتي؟». تساءلت.

«موعدنا غدًا»، هكذا قلت. وقررت العودة إلى منزلي، فالليل الغاسق حلَّ بعتمته الصامتة، وصار الوقت يدنو من العاشرة..

«هيَّا إلى البيت يا سعيد، يا والد مرهون الصغير»، هكذا قلتُ مخاطبًا نفسي، مزهوًّا بما أنا عليه رغم جراحي وأوجاعي..

# 14

يا لكَ من إنسان مذهل يا «مرهون»! حتى وأنتَ في سرير شفائك العصـي تقرأ مخطوط روايتك، تريد أن تطمئن على وليدك الذي لم تره مطبوعًا في كتاب؟

حدَّثت نفسـي بهـذا وأنا أتناول طعـام فطـوري، وعزمي يحثني صوب البحث عن «أبو نادية».

خرجت مسرعًا إلى سيارتي، أخبرني «عادل»، في اتصال هاتفي، بألّا أذهب إلى عملي هذا اليوم، وقال: «إن سـيارة مفخخة انفجرت في طريقٍ محاذٍ لمبنى الوزارة».

تأسـفنا معًا لما يجري، فأخبرته بأنني لن أذهب إلى العمل حتى نهاية الأسبوع..

وضعت الورقة التي تضمُّ عنوان «أبو نادية» على المقعد المجاور لمقعدي حتى أراها في كل لحظة، وأخذت أمضي بسـيارتي وسـط زحـام الطـرق قاطعًـا المسـافات، فبيـت هـذا الرجل يقع فـي آخر العاصمـة، حتـى إن موجة خوف وقلق من المـجهـول اجتاحتني في تلك اللحظة لكوني لم أذهب إلى تلك المناطق من ذي قبل.

صرت أسأل الناس عن الحي الذي يسكنه الرجل، وكلَّما ابتعدت عن مركز العاصمة كلَّما يدلني المارة على منطقة أبعد حتى وصلت إلى معمل الثلج، وهناك أخذت أسأل عن دكَّان «أبو محمود»، أو «بقالة أبو محمود» كما يقول السياسيون العراقيون الجُدد القادمون من بعض دول الخليج، صرت أمشي وأمشي بين الأزقة حتى لاح لي دكان «أبو محمود»، تردَّدت في سؤالي عن «أبو نادية» مباشرة، قلت مع نفسي: «الأفضل لي شراء أي شيء من الدكان ليكون مدخلًا للسؤال عن بيت الرجل الذي أقصده».

دخلت المحل، لكنَّني فوجئت بوجود امرأة في الستين من عمرها أو أكثر.. اشتريت منها علبة سجائر، لكنَّها داهمتني بسؤالها:

- أنت غريب على هذه المحلة؟

أخبرتها بالإيجاب، وسألتها مباشرة عمَّا أريد الوصول إليه، فأخبرتني بالمكان..

شكرتها على مهل، وتوجَّهت إلى غايتي.. طرقتُ الباب، ولكن من دون رد، طرقته مرَّة تلو أخرى حتى فُتح، كان صبيًّا بعينين خضراوين تشعَّان براءة، سألته عن «أبو نادية»، فقال بصرامة حاسمة:

- جدي نائم.. وأمي «نادية» في الحمَّام، ماذا تريد؟

طلبت منه إيقاظ جَدِّه، لكنه رفض، أخبرته بأنني من طرف الدكتور «أحمد الجبوري» فجفل بمكانه، وعاد مسرعًا إلى داخل الحوش، وبعد دقائق خرج «أبو نادية» إليَّ، فتعارفنا، ونقلتُ له تحيات الدكتور «الجبوري»، فرحَّب بذلك، وأخبرته بموضوعي، واسترسل قائلًا:

- أنا أتذكَّر ذلك الرجل الرائع الذي كان يرقد في المستشفى، أحببته كثيرًا، وكنت أنصحه بأن يترك قراءة الأوراق حفاظًا على راحته، لكنَّه كان يقول إنها مجرَّد قراءة. لا أعرف ماذا كان يقرأ، لكنَّني شاهدت رزمة الأوراق لديه، وهو دائمًا يضعها إلى جانبه عندما ينام، وأنت تعرف أن مرضه أو علَّته كانت تجبره على سبات يصل إلى عشرين ساعة في بعض الأيام، وأذكر مرَّة أنني كنت أجلس على مقربة من غرفته فلاحت لي امرأة، وعندما اقتربت من الحجرة أرادت الدخول إليها، فأخبرتها بأن المريض غير مستيقظٍ، لكنها أصرَّت على الدخول قائلةً: أنا زوجة المريض، وأعطتني عشرة آلاف دينار كإكرامية، وقالت: اذهب إلى عملك.. ويومها لم تعجبني صرامتها في الكلام، ولا طريقتها في التصرُّف معي وكأنني أعمل لحسابها.. كان الأجدر بي تركهما معًا، خصوصًا أنها زوجته وجاءت لتزوره، بحسب ما قالت، فبقيت تلك المرأة داخل الحجرة وسط يقيني بأن المريض كان في نومٍ عميقٍ. رجعت بعد وقت لأدخل الحجرة بدعوى الاطمئنان على

المريض وعليها أيضًا، فلم أجدها، فقط كان المريض نائمًا على سريره كما كان، إلَّا أنني مددت بصري إلى شيءٍ داخل الغرفة لم يكن طبيعيًّا؛ فالأوراق التي كان المريض يقرأها بتعبٍ، كما كنت أراه أحيانًا، بدت مبعثرة، بعضها ساقط على الأرض، وغيرها على الطاولة المركونة إلى جانب سريره، فجمعتها ورتبتها وأعدتها إلى الطاولة، ومن ثَمَّ خرجت، وهذا ما جرى بالضبط.

قلت له:

- صدقت يا عمِّي، أنت إنسان رائع.

لكنَّه تساءل:

- هل الأوراق التي كان يقرأها المريض مهمة إلى هذا الحد بحيث إنَّك، وفي مثل هذه الظروف غير الآمنة، جئتَ لتسأل عنها؟ هل تلك الأوراق تخص ميراثًا للمرحوم؟ هل تخص أملاكه؟

أخبرته بالموضوع، وطلبت منه ألَّا يقلق، فالموضوع بسيط.. ودَّعته بعد أن دسست في جيبه مبلغًا من المال رغم تمنُّعه لأنه دلَّني على سارقة الفصلين، الثاني والخامس، من فصول الرواية، وصار لديَّ يقين بأنَّ «نهى» هي التي سرقتهما، ما يعني أن الرواية تخصُّها، وإلا لماذا تسرقهما وهي تعرف أن زوجها «مرهون» في طريقه إلى الموت؟

في أثناء عودتي إلى البيت، كانت أسئلة من هذا القبيل تراودني؛ «نهـى»، «نهى»، «نهى» هي التي سـرقت الفصليـن.. لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

«هـل لي إخبار والدة مرهون ومريـم بالأمر؟ كيف لي التأكُّد من ذلك؟»، تساءلت.

بـدت المعلومات التـي أوصلها لـي هذا الرجـل واضحة، فهي تتضمَّن كلامًا عمَّا جرى ليس من باب الظن أو التكهن، بل من باب اليقين.

ولمَّـا كانت «نهى» هي التي سـرقت الفصليـن، وأتمنى أن أكون مصيبًـا فـي ذلك، فإن هنـاك غاية، بل هناك علاقة بيـن الرواية وهذه الزوجة المزعجة، الأمـر يحتاج إلى تفكير وتفكير مُضاعف.. لا بُدَّ مـن الوصول إلى منزلي أولًا، وهناك سـأعيد علـى مهل التفكير في الموضوع، يبدو لي أن الأمر صار أكثر تعقيدًا مما سبق.

ولجت داري والظلام يحتفي بسـؤدده فـي كل أرجائه، وكذلك الأمـر مع الشـارع والحي كله.. كنـتُ أنتظر عودة ضـوء المصابيح حتـى أعيـد النظر فـي المخطـوط، أردت قـراءة الفصـل الأول مرَّة أخـرى لعلِّي أجد خيطًـا، ربما تكون «نهى» هي «سُـهى»، التي ورد اسمها في هذا الفصل من فصول الرواية.

وجـدتُ نفسـي أحتـاجُ إلى مسـاءٍ مُضاء بالسـكينة، أحتـاج إلى استحمام ربما يُزيح عن كاهل جسدي عناء يومٍ عصيبٍ هدَّ مفاصل جسمي... «يا لها من حياة رعناء!»

رنَّ تليفوني الخلوي، كانت «مريم»..

تكلَّمتُ معها، وأخبرتها بأنني لم أجد «أبو نادية»، ووعدتها بأنني سأجده حتمًا، فقط أحتاج إلى بعض الوقت، لكنها تنبَّهت إلى عدم ارتياحي في أثناء كلامي معها، أخبرتها بأنني بذلت جهدًا كبيرًا نهار اليوم وأنا في طريقي إلى منزل «أبو نادية» من دون ملاقاته..

عندمـا أنهيـت المكالمـة، كلت اللوم لنفسـي؛ فالأجـدر بي ألا أشعرها بتعبي وقلقي عمَّا سمعته من «أبو نادية»، كنتُ بحاجة إلى هدوء أكثر وأكثر..

# 15

قضيت ليل أمس قارئًا للفصل الأول، كانت القراءة الثانية له..

دخلت إلى مطبخي لتحضير طعام لفطوري.. رجعت إلى جلستي في الصالة.. ما زلت أفكِّر في مطلع الفصل الأول الذي جاء فيه:

*«ما كان فَجْرِي الأنثوي الثاني يُعوضني خساراتي التي سبَّبها لي موت فَجْرِي الأنثوي الأول».*

يا ترى، هل يقصد «مرهون» بالفَجر الأول زوجته الأولى «فاطمة البصري»، وبالضرورة يقصد بالثانية زوجته «نهى»؟

بدا لي أن ما يهم هنا هو ملفوظ «خساراتي»؛ فما الذي خسره «مرهون» عندما توفيت زوجته الأولى؟

حقًّا ما الذي خسر؟

أكيد خسر أنثاه الرائعة التي أحبَّها لسنواتٍ حتى تزوجها، وخسر حبَّها وذكرياته معها عندما رحلت، وأكيد خسر ذلك الجمال الباهر الذي كانت عليه «فاطمة»، وخسر شخصيتها الرائعة التي كانت

عليهـا، بل خسـر تلك «الإلهـة الدنيوية الملهمة» كمـا كان يقول لي منذ عشقها، ومن ثم تزوجها، وبعد وفاتها السريعة والغادرة..

أتذكَّر أيضًا ما جاء في الفصل الأول، وعلى لسـان «سُهى»، التي كانت تخاطب زوجها «رشيد» في الرواية قائلة له:

*«عليـكَ أن تخرج من قُمقم فَجرك الأول، وإذا لم تنسَ ذاك، فلن أعيش معكَ الحاضر».*

مـا يعنـي أن العيـب في «رشـيد»، بطـل روايـة «ينحنـي الصابر للوجع»، الذي لا يريد نسـيان فجـره الأول، أو زوجته الأولى، التي لم يأتِ «مرهون» كمؤلِّـف على ذكر اسمها على نحوٍ صريحٍ في هذا الفصل.

عدتُ من جديد لأنظر في هذا الفصل، أبحث في طياته السَّردية عـن مماثلات ونظائـر تحيلني على «نهى»، زوجـة «مرهون»، حتى راقـت لي قـراءة الملفوظ الآتـي، الذي ورد في الفقـرة الأخيرة من فقراته:

*«كيـف لي العيـش مع فَجْـرٍ أنثوي خائـن؛ فَجْرِي الثانـي، الذي شـممتُ في جسده ليل أمس رائحة ذكورة عفنة؟ الغريب أن فَجري هـذا تـوارى عـن منزلـي في صبيحـة اليوم التالـي، اسـتيقظت ولم أجده..».*

ماذا يقصد الكاتب بعبارة: «رائحة ذكورة عفنة»؟

شعرت بالحاجة إلى مزيد من التأمل في هذا الملفوظ.. أردتُ أن أضيف مزيد شاي إلى معدتي، لكنني وجدت الإبريق خاويًا إلَّا من طللٍ مبتلٍّ في قاعه، دخلت مطبخي لأُعدَّ الشاي ثانية؛ فنهاري هذا اليوم سيكون مثقلًا بالتفسير والتأويل لنصوص رواية «مرهون»، وفك شفراتها الداخلية، تلك مَهمة صعبة، لكنني، وبحكم صداقتي الطويلة لـ «مرهون»، تراني أصل إلى بعض النتائج، أتمنى ذلك، نعم أتمنى ذلك..

وضعت ملفوظ «رائحة ذكورة عفنة» كما ورد في النَّص، مقابل ملفوظ «رائحة ذكورة زاكية» الافتراضي، والذكورة العفنة هنا قد تعني خيانة «سُهى» لزوجها «رشيد» في الرواية، فهل يعني هذا أن «نهى» كانت تخون زوجها «مرهون» مع رجل آخر في الواقع؟

ربما يقصد بملفوظ «فَجْرِي ذاك توارى عن منزلي صبيحة اليوم التالي»، هروب «سُهى» عن بيت الزوجية، وهو الأمر نفسه الذي فعلته «نهى» عندما هجرت بيت «مرهون» صبيحة يوم لم يكن عاديًّا في حياته.. أتذكَّر ذلك جيدًا، سيما أن «مرهون» أخبرني بذلك، وفي تلك الأصبوحة المشؤومة ذاتها كان قد تعرَّض إلى نكسة صحية حادَّة، كانت الأولى من نوعها تقضم صفاء كيانه النفسي، لكنه، وتحت ضغط والدته، أعاد «نهى» إلى بيته لاحقًا من دون أن

تكـون العلاقة بينهما منسـجمة، وأتذكَّر أيضًا مـا أخبرني به في تلك الأيام عن شروعه في كتابة رواية قال عنها: «ستكون الأخيرة لي»!

عندما انتقلت إلى الفصل الثالث، وجدته يبدأ بالملفوظ الآتي:

*«كمـا رأيـت، عزيزي القـارئ، كيـف أن فَجري الأنثـوي الثاني تمادى في إشـباع جسـده برائحة ذكـورة غريبة على فضاء سـريرنا، وهـو أمر لـم أجده يومًا عندما كان فجـري الأول في ضيافتي الرائعة التي حرمني منها الموت خلسة».*

واضـح هنا، أن «مرهون»، وبوصفه ناصًّا لروايته «ينحني الصابر للوجـع»، صار يخاطب القارئ، وهو أحد أسـاليب ما يسـمونه بما وراء الروايـة، بحسـب مـا يقـول «فاضل ثامـر»، أو السـرد المفتون بذاته، بحسب ما يقول ناقد آخر.

يتضـح أيضًـا، أن «سُـهى»، أو الفَجر الثاني، أخـذت تتمادى في خيانة زوجها «رشيد»، فهل يمكن إجراء تطابق مُقارن بين الحالتين؛ حالـة «مرهـون» + «نهـى» في الواقـع الواقعـي، وحالة «رشـيد» + «سُهى» في الواقع الروائي؟

رنَّ هاتفـي.. أخبرتنـي «مريـم» بوصـول والديهـا إلـى بيـت أم «مرهون»، وطلبت مني الحضور.

# 16

وأنـا أدنو من باب بيت أم «مرهون»، سـمعت أنيـن بكاءٍ، دلفت إلى الداخل فوجدت عمِّي «أبو مريم» يجلس في الحديقة الصغيرة، كانت عمَّتي «أم مريم» داخل الصالة تبكي لبكاء أم «مرهون».. طلب منـي عمِّـي أن أُهدِّئ من حال النسـوة، فدخلت إليهـن، لكنَّ البكاء تعالـت صيحاته، حتى «مريم» كانت تذرف دمعًا، لكنني طلبت منها غسل وجهها، والأمر نفسه طلبته من عمَّتي ومن أم «مرهون»، طيَّبت نفوسهن حتى هدأ الحال، فدخلن إلى المطبخ سوية..

كان عمِّي قد جلب معه خروفًا و«شوالًا» من الرُّز، وعبوة كبيرة من زيت الطبخ، ركنتها في المطبخ، وعدتُ إليه لكي أحكي له ما جرى، فقال لي: «يا بني، أنت لا تملك نفوذًا ولا سلطة على زوجة مرهون، تلـك حياتهـا، كمـا أنَّها حرَّة فـي التصـرُّف بتركة زوجهـا، الأوراق أو الروايـة هـي جزء مـن التركة الشـرعية، ولـك أن تُقـدِّر الأمور».

بدا كلامه معقولًا لي، لكنه لا يُدرك معنى أن يترك الكاتب رواية، فـ«مرهون الشـاكر» هو شـخص مبدع وليس تاجر سـمك أو سمن أو خشب.

لهذا، وجدت معالجة الأمور بطريقتي الخاصَّة بمشاركة «مريم» والاستعانة بأم «مرهون» أفضل لي وللموضوع، فكل ما أريده هو الفصل الثاني والفصل الخامس من الرواية لكي أرسلها كاملة إلى الناشر.

في السادسة مساءً، أخذتُ عمِّي «أبو مريم» إلى منزلي، وتركت عمَّتي مع «مريم» عند أم «مرهون»، فهن نسوة..

في الطريق، طلب مني عمِّي أن نذهب معًا إلى مطعمٍ ما لتناول العشاء، وأمضينا هناك بعض الوقت، ومن ثم انتقلنا إلى أحد المقاهي لنشرب الشاي، وندخن النارجيلة، وهناك أيضًا فتحنا موضوع زوجة المرحوم «مرهون»، واقترح عمِّي الذهاب إلى بيت أهل «نهى» للحديث عن الموضوع تحت ذريعة تقديم العزاء لها ولأهلها.

رحَّبت بالفكرة، فربما تفتح لي أفقًا أعثر من خلاله على الفصلين المفقودين من فصول الرواية.

# 17

عندما قـام «مرهون» بخطبـة «نهى»، وتحديدًا في يـوم الخطبة، كنتُ معه وشـقيقه الشـهيد المرحوم «حسـين الشـاكر»، الذي قطع مجرمو الجهاد الكاذب رأسـه عن بدنه.. أتذكَّر تلك المناسـبة جيدًا عندما ذهبنا وأم «مرهون» معنا إلى بيت أهل «نهى»، أتذكَّر المكان، لكننـي الآن أحببـت التأكُّد منـه أكثر من ذلك العنـوان، فطمعت في كـرم «مريم» أن تسـأل أم «مرهون» عن العنـوان للتيقن حتى جاءني الرَّد بأن العنوان ما زال هو نفسه.

رافقنـي عمِّي إلـى هناك، قطعنا مسـافة طويلة واسـتغرقنا ثلاث سـاعات حتى وصلنا إلى بيت أهل «نهـى»، قرع عمِّي الباب لثلاث مـرَّات ولا من مجيب، حتى خرج علينـا جارهم وأخبرنا بأن «نهى» ووالدتها سـافرتا إلى سـوريا، إلا أنني توسَّـمت بذلـك الجار خيرًا عندمـا طلبـت منـه إعلامـي بعـودة «نهـى» من سـوريا لكـي أعاود زيارتها.

وافـق الرجل بسـعة صدر بعد أن عرف نيتنا، أنـا وعمِّي، وتبادلنا أرقام هواتفنا الجوالة، وراقت لي حماسته في التعاون معي..

في طريق العودة إلى منزلي، أخبرني عمِّي بأننا، أقصد أنا وعمِّي، سنعود إلى البيت غانمَين؛ فهذا «الشاب، جارهم، ربما سيكون هو المفتاح الذي يجعلك يا سعيد تعرف ما جرى»، قال عمِّي، وأضاف: «يبدو على شخصية محمود التطفُّل وإلا ما خرج إلينا، لكنني على يقين من أن هذا الشخص سيجعلك تعرف بعض ما خفي علينا من شخصية نهى، زوجة المرحوم، ستعرف وجوهًا أخرى عنها، فربما هي التي جعلت مرهون يندفع لكتابة قصَّة أو رواية».

بدت تفسيرات عمِّي «أبو مريم» مفاتيح لا تخلو من واقعية، لكنه الواقع أكثر تعقيدًا من ذلك، هكذا بدا لي الأمر..

# 18

انقضت أيام عـدَّة، عمِّي وعمتي عادا إلى الحلة، وأمضينا بعدها نهـارًا كاملًا متعبًا في المقبرة بوادي السـلام لإحيـاء ذكرى أربعينية المرحـوم «مرهـون» برفقة والدته و«مريم» ونسـاء أخريات قريبات والدة المرحوم من مدينة الكوفة.

بـدأ بطن «مريم» يبرز إلى الأمام، وأخذت تشـتهي بعض الطعام غريـب الأنواع، طلبت مني أم «مرهون» العودة بـ «مريم» إلى منزلنا ولـم أكـن أرضى بذلك حتـى لا أتركهـا وحدها في منزلهـا، لكنني حقًّـا بدأت أحتاج إلى «مريم» في منزلنـا، خصوصًا في ظل ظروف عصيبـة يمـرُّ بها الجميع بعد أن صـار القتل وجز الأعناق بحسـب الهوية والانتماء شائع الحدوث..

اتفقنـا لنذهب، أنـا و«مريم»، وفي نهاية كل أسـبوع، إلى بيت أم «مرهون» حتى تعتاد على فراق ولدها المرحوم، كان ذلك برنامجنا الأسبوعي رغم شعوري بأنني لن أبدي أي التزام به منتصرًا لملازمة «مريم» في بيت أم «مرهون».

# 19

كنت في مكتبي بالوزارة، لكنها ظهيرة لاهبة لحظة جاءني اتصال من شخص، وقال: «أنا محمود، جار بيت أهل نهى، الجماعة رجعوا من سوريا سوى ابنتهم نهى التي ما زالت في سوريا»، فطلبت لقاءه، رحب بالفكرة، وضربنا موعدًا لذلك.

عندما عزمت على لقاء «محمود»، كان المسلحون المتطرفون قد أحرقوا أمكنة عدَّة في العاصمة مستخدمين السيارات المفخخة وبعض الانتحاريين والعبوات الناسفة، وبدأنا نسمع عن حرب طائفية قذرة يجري الإعداد لها على نار هادئة لتشعل الحرائق بين الناس خلال الفترة القادمة.

عندما وصلت، رأيت «محمود» يجلس في المقهى، كانت الساعة العاشرة والنصف صباحًا، رحَّب بي ورحبت به، طلب مني أن أعرِّفه بنفسي، ولكنني رأيته يعرِّف بشخصه مباشرة، فهو ضابط في الجيش العراقي السابق، تعرَّض إلى إصابة في حرب عام 1991 أفقدته إحدى ساقيه، ومنذ ذلك الحادث تراه يستخدم ساقًا عاجية.

تألَّمت عندما سمعت ما قصّه عليَّ عن ذلك، قال لي فجأة: «عندما جئت، أنت والشخص الوقور الذي كان برفقتك، لاح لي بأنك جئت إلى بيت أهل نهى تطلب حاجة ملحة منها، أليس كذلك؟»، فأخبرته بالحكاية كاملة، لكنه أخذ يسترسل في كلامه عن نهى قائلًا: «عزيزي سعيد، صديقك المرحوم ليس أول من خطب نهى، وبالتالي تزوجها، هو خطبها وتزوجها في وقت كانت فيه تعاني من أزمة مالية مدمِّرة، صديقك المرحوم هو الخطيب الثالث لها؛ فعندما كانت طالبة جامعية خطبها ضابط في الجيش، واستمرت الخطوبة تسعة أشهر من دون زواج متكامل حتى تُوفي ذاك الضابط، والذي كان يملك دار سكن، وثلاث سيارات، ورصيد في المصرف لا بأس به استطاعت الاستيلاء عليها كلها بالتزوير وخطيبها لم يدخل بها بعدُ عندما توفي، وبدأت المشاكل مع والده وإخوته حتى وصلت الأمور إلى استخدام السلاح والتهديد بالقتل، فصار الاتفاق بين الطرفين على أن تتنازل نهى لوالد خطيبها عن دار السكن، وهي تأخذ إحدى السيارات مع رصيده في المصرف. وبعدها بعام، رأيناها تصعد وتنزل من سيارة شخص آخر شاع الأمر في حينها بأنه خطيبها، واستمرت معه حتى جاء ذلك اليوم الذي ألقت أجهزة الأمن القبض عليهما، وتم اقتيادها إلى مركز الشرطة، فحبيبها خسر 150 ألف دولار أمريكي في سوق السجائر، وتم إخراجها بكفالة، لكنها كانت تبحث عن دينار واحد لتسدده إلى

القضـاء لكي يخلي سـبيلها، حتى جاء صاحبـك المرحوم مرهون، وتقـدَّم لخطبتها، وأتذكر أن والدتي، رحمهـا الله، التقت أم مرهون فـي بيـت أهل نهـى يـوم جـاءت لخطبتها مـن دون أن تعـرف عنها الكثيـر.. كان المرحـوم يأتي إلى زيارة نهى فـي بيت أهلها، ومن ثم أخذا يخرجان معًا، وكانت أمي تريد ولا تريد إخبار والدة المرحوم عن بطـولات نهى الغرامية الزائفة مع الرجـال، وأقصد مع خطيبيها السـابقين، كانت والدتي حـذرة فيما تفعل، وشـعارها الدائم، وفي مثل هـذه الحـالات، دعِ الأمور تمضـي ورب الكون هـو الحارس الأميـن. وبعدما تزوَّجا، ما كانت نهى تغيـب عن بيت والدها كثيرًا، ففـي الأسـبوع الواحد تأتي ثـلاث مـرَّات، وتجلس عندهـم يومي الجمعة والسـبت، وبعد فترة كانت تأتي إلى بيت أهلها تقلها سـيارة خطيبها السـابق الذي كان في السجن وأُطلق سراحه، أذكر مرَّة أنني كنت أجلس عند عتبة بيتي في السـاعة العاشرة ليلًا ورأيتها تنزل من سيارته تلك، وبصراحة فار دمي حينها، وأردت أن أجهز عليها ضربًا وركلًا، فالبنت الشريفة والأصيلة لا تفعل ما تفعله امرأة متزوجة مثل نهى مسـتغلة ثقة زوجها المرحوم بهـا. أخبرت والدتي بالموضوع، وطلبتُ منها أن تخبر أم نهى عن سلوك ابنتها، لكن والدتي امتنعت، وقالت لي: هذه البنت شـرَّانية، دعها ومصيرهـا فهي إلى الزبالة في نهاية الأمر».

صمت «محمود» برهة وكأنه يتأكد من تمام انتباهي لما يقول، ثم أضاف بحماسٍ: «استمر الحال على هذا المنوال لفترةٍ طويلةٍ، وكان المرحوم مرهون يأتي وحيدًا إلى بيت أهلها ويعود وحيدًا أيضًا في أيام كثيرة من دون أن يرى زوجته، ويبدو لي، أقول: يبدو لي، أن والدة نهى إما كانت مرتاحة لتصرفات ابنتها أو غير قادرة على ردعها، وأذكُر أنني رأيت المرحوم لأكثر من مرَّة وهو يأتي ويقف لوحده خلف شجرة يحرق الوقت انتظارًا ربما ليُراقب نهى، وكان يشاهد عودتها مع صديقها إياه في مساءات تقترب لحظة وصولهما من ساعة منع التجوال في العاصمة. وبعدها انقطع المرحوم عن المجيء، ويومها زادت قناعتي بأن الرجل، أي مرهون، ربما تمكَّن من ضبط زوجته بالجرم المشهود خيانة أو ما يُشبه ذلك.. عدا ذلك النهار، الذي جاء فيه مرهون إلى بيت أهلها، وراح يطرق الباب بعنفٍ من دون استجابة، فأخذ يشتمهم بصوتٍ عالٍ، ومن يومها ما جاء الرجل ثانية، لكن نهى مكثت لأيام تلو أخرى في منزل أهلها، وحينها فسَّرت الموضوع بأنَّها إما طُلِّقت أو لم تعد تهتم بأمر زوجها المرحوم، لكنها لم تنقطع عن لقاء حبيبها أو صديقها ذاك، بل وغيره حيث كانت تأتي في أيام أخرى بسيارة يقودها رجل ملتحٍ يتطاير الشرر من وجهه، حتى جئتني أنتَ وعمَّك وأخبرتموني بأن مرهون، زوج نهى، قد تُوفي. وأريد أن أقول لك شيئًا آخر أخي سعيد، وهو أن نهى، كشخصية، وبحسب قول والدتي وشقيقتي عنها، تبحث غالبًا

عن ضحايا، ذلك هو شأنها منذ شبَّت على الدنيا. ويبدو، وسامحني علـى ما أقوله لك، أن المرحوم مرهـون كان ضحية من ضحاياها.. أما إذا سألتني عن الطريقة التي تعرَّف بها إلى هذه النهى فأقول لك: إنني لا أعرف، فالرجل كان مندفعًا لخطبتها والزواج بها، ولا أعرف ما هو السـبب، هل هـي ظروف البلد وما يمر بـه من ويلات ومحن وحـروب وموت رخيص تجعل الإنسـان لا يفكر كثيـرًا فيما يختار ويصطفي، أم غير ذلك؟ لا أعرف».

# 20

عدتُ إلـى منزلي مصدوم الحال، تتوارد إلى ذهني أسئلة عدة: «فهـل مـن المعقـول أن مرهـون يتـزوج من عاهـرة؟ كيـف ذلك يا مرهون، وكيـف ذلك يا أم مرهون؟ أين حدْس البصيرة، ذلك الذي كنت تحدِّثنا عنه يا مرهون؟»

أخبـرتُ «مريـم» بما سـمعت من «محمـود» فأخذهـا الذهول، لكنها استأنفت قائلة:

- لـم تكن أخلاق «نهـى» طبيعية، فبمجـرَّد امتناعها عن الحمل من «مرهون» كان يكفي لأن يجعله يُطلِّقها، ولكنك تعرف جيدًا صبر «مرهون» على البلوى والمصيبة. ماذا يفعل؟ هل يُخبر والدته بأن زوجتـه تنقـض عهدها مع غيره أم يخبرك أنت؟ وماذا لو سـمعت والدته بالخبر؟ تراها ستذهب إلى الموت من فورها، ومن ثم ماذا لـو عـرف الناس بأن زوجته غارقة في الرذيلـة إلى هذا الحد؟ هل تعتقد يا «سعيد» أنهم سيرحمونه من كلامهم السيئ وهو شخصية مشهورة تعيش في زمن أغبر؟

- تلك هي رائحة الذكورة العفنة إذن!

نطقتُ بذلك، وأنا أمضي شطر حجرة نومي حزينًا يأسر قلبي لظى أوجاع نافر..

# 21

«أيُّ عاصفة رعناء كانت تدور في داخلك يا مرهون؟»

سألت بصوتٍ مهموسٍ وأنا أجلس إلى زاوية في حديقتي التي لا أرى خضرتها سوى ظلال خافتة يسَّاقط منها الألم بعد الذي سمعته من الأخ «محمود» عن تصرفات «نهى»..

أطبق الهمُّ على كينونتي، حتى «مريم» خيَّمت عليها موجة حزن ينشرها صمت الحيرة..

كنا ننحني للخيبة التي تربعت أعلى سلَّم اللحظة شامتة بخبث..

ذات مساء، وفي «مقهى الشاهبندر»، كنت قد رأيت «مرهون» صامتًا بذهولٍ، ربما كان يومها تحت سطوة الشعور بالهزيمة جرَّاء ما تفعله به زوجته الثانية «نهى»، ربما كان قد عرف للتوِّ عن خياناتها له، أو ربما أدرك فداحة مأساته، وهول أنْ تكون لكَ زوجة تتكرَّى تحت جسد غيرك من الرجال في سرير فاحش، أو حتى في مكتب عمل، أو على أريكة أو كنبة قذرة، أو حتى على بلاط خلية عفنة

تفـوح منهـا رائحـة الرذيلـة في وقـت لا أحد منَّـا، في هـذا الظرف العصيب، يضمن وجود روحه في بدنه لغدٍ آخر، بل لسـاعةٍ، وحتى لدقيقةٍ واحدةٍ، فالموت الزموع أصبح سيد الخراب في وطن الرَّدى الأكبر.

خالجني الشـعور بالحاجة إلى «مريم»، غادرتُ الحديقة قاصدًا صومعة نومنا، كانت «مريوم» غافية ولم تصل بعدُ موسيقى الصباح إلى مسـامعها.. جلسـتُ على طرف سـريرنا، أخذت أترسَّم مُتأملًا بهاء وجهها، وصفو رموشها البريئة، وأناقة أنفها الناعمة، ورقة فمها العاطر بأحلامها.

وضعت رأسي على وسادتي، صارت أنفاسها الدافئة تصل فمي وأنفي، رائقة بل مثيرة خصلة شـعرها المتجانفة على وسادتها كأنَّها الليل وقد أرخى سدوله على بياض الوسادة.

أردتُ إيقاظها، لكنني تركتها تأخذ قسـطها من الراحة، ووجدت مـن الأفضل لـي أن أدخـل المطبخ لتنظيـف ما تبقَّى مـن الصحون المغبـرة، وإعداد فطوري وفطورها ريثما تسـتيقظ سـيدتي وأميرتي «مريم الشبلي».

انتهيت مما شـئت، عدتُ ثانية إلى الحديقة، غمرني الحنين إلى «مريم»، ربما الحاجة إليها، سـاورني إحسـاس بأن ذكورتي تتبخر، لا بُدَّ لأحدنا، نحن الرجال، أن يحافظ على ذكورته باسـتدامة حثيثة

لكيـلا يفقـد ثقة امرأته به، الويل لذلك الـذي لا يُديم ذكورته ويصدُّ عنها نضوبها المخزي.

عدتُ إلى حجرة النوم لإيقاظها، لكن «مريم» سبقتني إلى ذلك، كانـت ممدَّدة على سـريرنا، اقتربـتُ منها، طبعتُ قبلـة على جبينها الدفيء، ضمَّتني إلى صدرها الفائض شـوقًا، طبعت قبلة على عيني اليمنى فاليسـرى، وأعادت رأسـي إلـى صدرها مرَّة أخـرى، كانت شـغوفًا، وبدت كَمَنْ تشـعر بحنيني الأسـطوري إليها، أنهضتها عن السـرير كأميرة، ولما نضـت ملابس نومها عنها، بدا جسـدها مَلاكًا وهـي تنظر عبر المرآة إلى بطنها، تتحسَّـس بأصابعها العسـلية بروز بطنها الذي ما زال مشـدودًا وعصي الهطول، وعبر المرآة، ابتسمت لي عندما أحسَّت بعيني تراقبانها، علَّقت بضع ملابس داخلية ناعمة على رسـغها، وسـارت إلـى الحمَّام، وفـي طريقها سـألتني بصوتٍ خافتٍ يدلُّ على حياءٍ غريبٍ:

- هل أعمل لك فطورك؟

- لا، فعلتُ ذلك قبلكِ، وفطوركِ تحت الطلب..

تاليًا، جمعتنا خضرة الحديقة في صباحنا الحالم، سألتني «مريم» عن الخطوة التالية بشأن مخطوط رواية مرهون:

- ماذا ستفعل؟

وبالمقابل سألتها أن تعطيني الإجابة، فقلت لها:

- كلام «محمود» أغلق نوافذ خيالي..

لكن «مريم»، وهي ترشف الشاي، أخذت تدلق كلامها بسلاسة المرأة الواثقة:

- لا بُدَّ لكَ يا «سعيد» من أن تتخلَّص من الصدمة؛ لأن «نُهى» ليست المرأة الأولى التي تخون زوجها، وليست الأخيرة أيضًا، الحروب التي مرَّت علينا نخرت أخلاق الناس، ضربتها في العمق، هشَّمت صميمها، حطَّمت المعقول فينا، وبالتالي تورُّط «مرهون» في «نهى» جاء عن غفلةٍ، كان عليه أن يُدقِّق أكثر، ولو عمل ذلك لكان سيستنتج من فوره أن امرأة خاضت تجارب دنيئة مع رجال آخرين قبله لا تُجدي نفعًا؛ لأنَّها ستُكرِّر الدناءة نفسها معه.. لقد اعتادت «نهى» الضحك على رجال آخرين قبله، خرجت عن طوع نفسها، وعن معقول ذاتها، غرس الخراب أنيابه في كيانها، ربما تكون هي ضحية، ولا أؤمن أبدًا بأن تكون «نهى» ملعونة بالفطرة، فالواقع المر الذي نعيشه هو الذي صار اللعنة التي تتحكم في سلوكها وأمثالها.. يا «سعيد»، يجب ألَّا تبحث عن أسباب تمرُّد «نهى»، ابحث عن الفصلين الضائعين من فصول الرواية فقط، ودع عنك بقية الأمور، فقد رحل «مرهون»، وما تبقَّى منه روايته التي تهتم بها أنت وفاءً له، وينتظرها الناشر والقراء من بعدك.

- هل تُشجعينني على الذهاب إليها حينما تعود من سوريا؟

- نعـم، اذهـب، ولمـاذا تنتظر حتى تعـود؟ اذهب الآن إلـى أهلها، وتكلَّم معهم حـول بقية أغراض «مرهون».. الأثاث، والملابس، والمكتبـة، وبقيـة الأشـياء بوصفـك رسـولًا مـن طـرف والـدة «مرهـون»، وبالمناسـبة هـذا ليـس رأيـي أنا فقـط، إنما هـو رأي أم «مرهـون» أيضًـا، هي قالت لـي ذلك، بل وطلبـت مني إيصال رسـالتها إليك، وأنت تعرف أن والدة المرحوم لا أحد لها سـوانا بعد رحيل آخر أولادها.

- هل تأتين معي؟

- ولِمَ لا! أذهبُ معك، سواء للقاء أهل «نهى» أو للقائها هي بذاتها، وعليك أن تتوقَّع منهم أو منها السـوء والإهانة وتجريح المشاعر، ولكننـا يجب أن نضع كل ذلك خلفنا بغية الحصول على ما نريد، أعني فصلي الرواية المفقودين لا أكثر ولا أقل.

- فكرة جميلة، وماذا عنكِ؟

- ماذا تقصد؟

- عن ولي عهدي الذي في رحمك، «مرهون» الصغير؟

ابتسـمت، وقالت بغنجٍ مبهجٍ وهي تضع كفها اليمنى بحنوٍّ على بطنها بأصابع متباعدة:

- «مرهون» الصغير ينمو ببطء، ولكن يدعوك لأن تشتري له سريرًا، وملابس، وأشياء أخرى، وأنتَ والده الذي ينتظر ولي عهده..

- الآن؟

- كلا، الآن عليك أن تذهب إلى السوق؛ فالزيت نفد، وموعد توزيع الحصة التموينية بعيد الوقت، والشاي والسكر نفدا، أمس اشتهيت مرقة الطرشانة مطبوخة بعظم خروف، واشتهيت تمر هندي، وبالمناسبة، عبوة غاز الطبَّاخ تكاد تنفد..

- الأحسن لنا أن نذهب إلى السوق، ولكِ ما تشتهين..

- هذا أفضل، فربما أشتهي شيئًا ما عندما أراه، أنا حامل، والحامل تتوحَّم، و..

- هيا بنا أيتها المرأة الحامل قبل أن تتوحَّمي وتطلبي مني لسان الغزال!

# 22

أخبـرتُ «محمـود» بالفكرة؛ بأن نذهب، أنـا وزوجتي، إلى بيت أهـل «نهـى»، قال لـي: «نهى لم تـأتِ بعد من السـفر». لكنـه يعتقد أنها ستعود يوم الخميس القادم، واقترح أن نذهـب إلى لقائها يوم الجمعة.

رحَّبت بالفكـرة، وأخبرت «مريـم» بالأمر، وكذلـك أخبرت أم «مرهـون»، بل واقترحتُ عليها المجيء معنا، لكنها رفضت لكي لا تواجـه أزمـة جديدة مع «نهـى»، وهي التي لاقت منها سيلًا منقطع النظير من الإهانات والإذلال..

# 23

فـي طريقنا إلى بيت أهل «نهـى»، أنا و«مريم»، رنَّ جرس هاتفي الجوال، لم يكن الرقم معروفًا لي شخصه، ومع ذلك، أجبت، كانت صحافية، قدَّمت نفسـها باسم «وفاء السامي»، وقالت إنها تعمل في صحيفة أسبوعية تصدر بالعاصمة، وتريد إجراء حوار عن المرحوم «مرهـون الشـاكر»، أخبرتها بأنني أقود سـيارتي الآن، ولا أسـتطيع الاسـتمرار فـي المكالمة معهـا، ووعدتها بالاتصال بهـا ثانية حول الموضوع.

كانت «مريم» قد سمعت ما جرى، وسألتني:

- هل هناك حق عام للمبدع أو للكاتب في أعماله؟

- ماذا تقصدين بالحق العام؟

- أنتَ تعرف، أننا غالبًا ما نسمع أن الأسرة الفلانية تنازلت عن حقها الخاص في قضية ما، أما الحق العام فهو من شأن الدولة.

- نعـم، هـذا صحيح، ولكـن لا أدري فيما إذا كان هـذا ينطبق على موضـوع «مرهـون» أم لا؟ دعينـا نذهـب، ونَرَ ما يمكـن أن نفعله هناك..

لمَّا وصلنا إلى عتبة بيت أم «نهى»، التفتُّ يمينًا فرأيت «محمود» يرسل لي تحية بيده من بعيد، تراني فهمته، إنه يريد أن يكون قريبًا وبعيدًا في آنٍ واحدٍ عن زيارتنا.

طرقنا الباب أربع مرات، وكانت الخامسة بكف «مريم»، خرجت علينا امرأة هرمة:

- نعم، ماذا تريدان؟

- السلام عليكم حجيَّة، قالت «مريم».

- عليكم السلام، تفضلا، ماذا تريدان؟

- نحن من طرف أم المرحوم «مرهون»، جئنا للكلام معك ومع «نهى». أوضحت «مريم».

- أي موضوع تتكلَّمان فيه؟

- ممكن نجلس عندكم للحديث عن هذا الموضوع؟ سألت «مريم».

- ما عندي وقت.. تعبانة.. عندي صداع.. أريد أن أنام..

- نصف ساعة فقط. طلبت «مريم» برجاء..

دخلنا إلى الصالة التي بدت كئيبة، بل وقذرة، الأثاث قديم، ويكاد الغبار يفرش حضوره على كل شيء، توارت الأم لعشرين

دقيقة حتى ظهرت «نهى»، بدا شعرها أشقر اللون. كان استقبالها لنا ثقيل الطيَّة، قالت:

- تفضَّلا، ماذا تريدان؟

- أولًا البقاء لله، كنَّا نأمل حضورك في العزاء. أوضحت «مريم».

- لا يوجد داعٍ لمثل هذا الكلام، ما الذي تريدانه بالضبط؟

- بينما كان المرحوم راقدًا في المستشفى، أخبرني بأنه سلَّمكِ جزءًا من مخطوط روايته الأخيرة «ينحني الصابر للوجع»..

قاطعتني بتبرُّمٍ:

- أنا أقرأ لهذا المجنون؟ ماذا أقرأ؟ شخابيط، قصص تافهة، وحكايات يفضح بها أعراض الناس؟ ماذا أقرأ؟ ومن ثَمَّ، ما شأنك أنت وهذا الموضوع، سواء أعطاني أوراقه أم لا، فتلك علاقة بيني وبينه، فلماذا تتدخلان في موضوع غيركما؟

- أنا أحترم رأيكِ، وأعتز به، ولكن الناشر أرسل رسالة طلب فيها النص الكامل للرواية لكي ينشرها، وأنتِ تعرفين أن الرواية التي كتبها المرحوم هي الأخيرة له، وهذا موضوع في غاية الأهمية لتراثه الأدبي والإبداعي.

- «مرهون» أو المرحوم كما تُسمِّيه، لم يُعطني أي شيءٍ، كنتُ فقط أريد التيقُّن من أنه سيموت حتى أتحرَّر منه.

- حـرام هـذا الـكلام وأنت أرملتـه.. طيـب، ألا تريدين ملابسـك وأغراضك وغرفة نومِك، هي حقكِ، متى تأتين لأخذها؟ سـألت «مريم».

- لا أريـد أي شـيءٍ، وبالمناسـبة، أنـا ذهبـت إلـى دائـرة الأحـوال الشـخصية، وسـجَّلت «مرهون» كمُتـوفٍّ، ولا يوجـد بيني وبين والدتـه أي صلـة أو علاقـة بعد موتـه، أنا الآن حـرة، وأثاث غرفة النوم وملابسـي سأرسـل لأمه مَنْ يحرقها أمـام ناظريها وأمامكم أيضًا، إذا رغبتم في ذلك.

- يـا «نهـى»، هل أنتِ متأكِّدة مـن أنكِ لم تأخـذي بعضًا من أوراق الرواية؟ سألتها أنا.

- قلـتُ لـك، لـم أحمـل معـي أي أوراق فـي أثنـاء تلـك الزيـارة المشـؤومة، كان «مرهون» في حالـة مزرية، وخرجتُ من حجرته خالية الوفاض إلا من خيبتي بهذا الزوج المريض الذي نكأ حياتي ودمَّرها كلها.

- شـكرًا لـكِ «نهـى»، والبقـاء للـه، ولكـن تذكَّـري أن المرحـوم «مرهون» ليس زوجك فقط، بل هو ابن الناس والمجتمع والتاريخ والمستقبل. قالت «مريم».

- هـذا تهديـد ولا أقبل بـه، تفضَّلا بالخروج، هيا، وهذه نسـخة من شـهادة وفاة صاحبكما الروائي المبدع، أرسلوها لوالدته، وانتهى الموضوع.

قالت «نهى» ذلك وهي تتوارى مسرعة متوترة عن الصالة..

أخذنا بعضنا، أنا و«مريم»، ومضينا خارجين.. خطونا معًا نحو بيت «محمود» الذي كان واقفًا عند بابه، أخبرته بأنني سأتصل به لاحقًا، وتوجَّهنا إلى بيت أم «مرهون» لشرح ما جرى.

في الطريق، أخذنا نقلِّب كل الكلام الذي سمعناه من «نهى»، وتأكَّد لنا أنَّها هي التي سرقت الفصلين المفقودين من فصول الرواية، وربما كانت عبارتها: «يفضح بها أعراض الناس» خير دليل على ذلك، فالمقصود أنه هتك عرضها كما تظن أو ربما تعتقد!

قالت «مريم»:

- ليس لنا سوى القضاء والمحاكم والقانون، قلت لكَ هناك حق عام، الدولة معنية بإعادته إلى صاحبه الشرعي، عليك أن تبدأ حملة تفضح أكاذيب ناكرة الجميل هذه.

- هذا ضروري، سأتصل برئيس الاتحاد العام للأدباء والكُتَّاب، سأخبره عن الموضوع بكل تفاصيله حتى يتحوَّل إلى قضية تأخذ طريقها إلى القضاء بمساعدة محامي الأدباء «عمَّار القاضي»، والقضاء سيُجبرها على الاعتراف بجرمها وإعادة الفصلين المسروقين.

اتصلتُ بالصحافية «وفاء السامي»، دعوتها للمجيء إلى منزلنا لكي نجري الحوار حول «مرهون الشاكر». رحَّبت «مريم» من جهتها بفكرة مجيء الصحافية إلى منزلنا، فهي غالبًا ما تحب أن تسمع ما تقوله النساء عني، هذه هي براجماتية «مريم» الناعمة أو كما تسميها هي بـ (Soft Pragmatic)، ولا أعرف كيف تحفظ هذه المفردات؛ ربما تدخل مكتبتي المنزلية خلسة، وتقرأ كتبي لكي تنافسني في قول الكلام، أو ربما لها قراءاتها الخاصَّة بها؛ فهذه الـ «مريم» دودة كتب وقراءة ونبش بين السطور مُذ كانت طالبة جامعية..

# 24

مضيتُ في قراءة الشِّعر حتى لاحت خيوط الصباح على حديقة منزلنا، كنتُ أبحثُ عن آلام «مرهون» في قصائد شعراء كنَّا قد قرأناها معًا، وقفتُ عند قصيدة «دوف تتكلَّم»، للشاعر «إيف بونفوا»، التي قال فيها:

«كنتُ أصرخُ،
كنتُ بوجهي أُجابه الرياح..
لماذا الحقد؟
لماذا البكاء؟»

هكذا كنتَ يا «مرهون»، تجابه الرياح الهائجة بالموت من حولك، تصرخ بها وحيدًا، تصرخ بوجه تلك التي سمحت لغيركَ أن يدسَّ أصابعه في لحمها الذي هو لك دون غيرك.

كنتَ يا مرهون طيرًا «وحيد الجناح»، كما قال الشاعر «جورج سفيريس».

وعدتُ إلى «بونفوا» مرَّة أخرى لأقرأ مقطعًا من قصيدته «حجر»، التي صدح فيها:

«وقومي بانحناءةٍ لأجلنا،

نحن الذين لم يعد لنا نهار».

هل تذكُر يا «مرهون»، وبعد رحيل زوجتك الأولى الشهيدة «فاطمة»، عندما كنتَ تقرأ لي هذا المقطع من قصيدة «بونفوا»؟

تراك كنتَ تبحث عن أنثى والنهار المضيء ولّى برحيله عنك، وغادرك إلى الأبد..

ووقفتُ أيضًا عند مقطعٍ من قصيدة لـ«جورج بطاي» أو «جورج بتاي»، ذاك المقطع الذي قرأته لي أنتَ بنفسك يومًا:

«العالم مُشرفٌ على الموت..

تطيرُ الطيور بعيونٍ مفقوءةٍ..»

منحتك «فاطمة»، زوجتك الأولى، عذوبة غير دائمة، أما «نهى»، زوجتك الثانية، فقد منحتك العذاب الأبدي، لكنه الموت وحده أنقذكَ من كل عذاباتك المُبتلى بها.

لم يعد لديك نهار يا «مرهون»..

ها أنتَ طرت بعينين مُهانتين عليلتين مفقوءتين في ظلامٍ دامسٍ إلى تلك التي فقأت لكَ قلبك، وأوقفتْ نبضه للأبد، كانت «نهى» قدرًا داجيًا في حياتك يا «مرهون» مثل سماء سوداء تقطر دمًا ملوثًا بالبشاعة، تلك التي تحبس وطننا المجروح، فلماذا جرَّبت أن تطير في تلك المتاهة العاتمة بجناحٍ واحدٍ وأنت مفقوء العينين؟

# 25

مـرَّت أيـام، كانت «مريـم» تسـتعد لاسـتقبال الصحافيـة «وفاء السـامي» فـي منزلنـا، وعندما جاءت لـم أكُ أعرف بأيَّـة صفة أكون عليهـا حتـى تُجـري الحـوار الصحافي معـي عن الراحـل «مرهون الشاكر».

ربما لكوني أحد أصدقاء المرحوم المُقرَّبين، أو ربما تعرف هذه الصحافية أنني أعيش راهنًا أزمة البحث عن الفصلين المفقودين من فصـول روايته «ينحني الصابر للوجـع».. كلا.. «لا يمكن أن تعرف ذلك؛ لأنني لم أخبر أحدًا سوى المؤتمنين من أصدقائنا». قلت.

فـي حياتـي، لـم أكُ كاتبًا، ولـم أكتب الشـعر، ولا أنـا الروائي أو القاص أو الفنان المسرحي، أنا مجرَّد قارئ، أنا صديق الأدباء فقط، ولكـن، ومهما يكن حالـي، فأنا صديق المرحوم «مرهون الشـاكر» الوحيد الذي يعرف عنه ما لا يعرفه غيري.

جاءت «وفاء السامي» إلى منزلنا، قدَّمتُ لها زوجتي.. وأخبرتها بأننا تخرجنا معًا في كلية الآداب بعد أن درسنا اللغة العربية فيها. وأخذت «وفاء» تتحدَّث عن نفسها في الدراسة والعمل..

جلسنا في الحديقة..

«وفاء» شابة جميلة، ترتدي حجابًا يزيدها جمالًا، لكنَّني كنتُ حذرًا في نظراتي التي قد تفلت من عينيَّ صوبها؛ لأن «مريم» ستكون لي بالمرصاد رغم أنَّها آية في جمالها، بل تفوق جمال الصحافية بهاءً وروعة، ولكنَّني أحذر دائمًا نصال الغيرة بين النساء..

تحدَّثت «مريم» مع «وفاء» عن حياة النساء، أخبرتها بأنها حامل بعد طول غياب، حرقنَ معًا حوالي نصف ساعة في أحاديث مشتركة، ومن ثم انتقلنا إلى الحديث عن «مرهون»..

أخبرتني «وفاء» بأنها جاءت إليَّ بوصفي أقرب أصدقاء المرحوم إلى حياته حتى يوم رحيله. سألتني كثيرًا عن حياة «مرهون» الثقافية، عن بداياته، ودراسته، عن كتاباته الأولى، عن رواياته ومجموعاته القصصية، وكذلك عن حياته الشخصية، عن زوجتيه: الأولى والثانية، عن والدته، عن أشقائه الشهداء، عن علاقاته المتشعبة مع الوسط الثقافي، عن موقفه من الحرب والاحتلال البغيض،

والإرهـاب الأعمى، والطائفية السـوداء، والقتل المباح في شـوارع مدننا، ومن ثم انتقلت مباشرة إلى روايته الأخيرة.

- شـاع في الوسط الثقافي أن «مرهون الشـاكر» كان قد تحدَّث عن رواية جديدة يكتبها وسـترى النور قريبًا، مـا الذي تعرفه عن تلك الرواية؟

- كان «مرهـون» قـد أخبرني بها، وقـال لي: إنها الروايـة التي كنتُ أنتظرها، ولكنَّنا، وبعد انتهاء العزاء، اكتشفنا أن فصلين من فصول الرواية الخمسة، كانا قد سُرقا قبل وفاته في المستشفى.

- إلى ماذا وصلتَ في بحثك عن الفصلين المسروقين؟

- لقد عرفت الجهة التي سرقتهما.

- هل التقيت بها؟

- نعـم، وأعلمتها بأهمية الفصلين بالنسـبة لروايةٍ مؤلَّفةٍ من خمسـة فصول، لكن تلك الجهة أنكرت.

- هل لديك شهود على سرقة الجهة التي تذكرها؟

- نعم، هناك شاهد واحد.

- هل لك أن تخبرنا عن تلك الجهة، وعن الشـاهد، ما اسـمه، وأين يعمل؟

- كلا، أنا أفضِّل التكتم عليهما الآن لحين تبنِّي مؤسسة معنية بشؤون الأدباء والمبدعين لهذه القضية دفاعًا عن الضحية وإبداعها.

- ماذا تقصد بالمؤسسة المعنية بشؤون الأدباء؟

- الاتحاد العام للأدباء والكتَّاب، ووزارة الثقافة على سبيل المثال؛ إذ لا بُدَّ لمثل هذه القضايا من أن تتحوَّل إلى قضايا رأي عام، فكل عمل إبداعي هو ملك للناس جميعًا، للوطن، للأمة، للتاريخ، وليس من المعقول أن تتم عملية سرقة ثلث رواية تقريبًا لأسباب أنا أجهلها بالنسبة لحالة «مرهون».

- هل يمكن إشهار عنوان الرواية التي كتبها «مرهون الشاكر» وهي الأخيرة له كما أخبرتني؟

- لا بأس في ذلك، عنوانها هو «ينحني الصابر للوجع».

- بحسب قراءتك، ما الذي يريد قوله المؤلِّف في هذه الرواية؟

- لقد قرأت الفصل الأول، وعزفت عن القراءة وذلك بسبب غياب الفصلين الثاني والخامس.. هي رواية عن الإنسان الذي تعصف به الحياة بكل لا معقولها البذيء، رواية المثقف الذي يعيش تحت تأثير الدمار القميء الذي يأكل حياتنا حتى يأتي عليها حرقًا شاملًا.. وأكتفي بذلك..

بعد الانتهاء من الحوار، دعت «مريم» ضيفتها «وفاء» إلى وليمة الغداء، استأذنتهما وتوجَّهت إلى الصالة، ومن هناك سمعت «وفاء» تقول لـ «مريم»: «زوجكِ رجل أصيل ووفي لأصدقائه، فضلًا عن كونه شابًّا وسيم الروح، شعرتُ أنه منسجم معك».

ابتسمت «مريم» بثغرٍ غانجٍ، وقالت لها: «هل أخطبه لكِ؟»

ضحكتا معًا، شعرتُ أن «مريم» كانت تنتظر مثل هذا الكلام الذي يصدر عن أيِّ امرأة تصف شخصيتي أمامها بمثل ما وصفت «وفاء السامي».

# 26

مضت سبعة أيام كانت فيها أم «مرهون» ضيفة بيتنا، أخرجناها من رتابة حياتها في بيتها الحزين، أجلسناها كالسيدة الأم بيننا، وأخذت تُظهر ارتياحها مما فعلنا.. وكانت برفقة «مريم» تهيئ سرير وفراش المولود القادم، وتخيط الملابس غير التي اشتريناها من السوق، حتى طلبت منَّا عودتها إلى منزلها، لكنني شعرت أن «مريم» كانت بحاجة إليها، ولذلك اقترحت الذهاب معها إلى منزلها لأسبوع فوافقت بمحبة؛ لأبقى، مرَّة أخرى، في داري من دون أنثاي.

# 27

في مطلع الأسبوع التالي، اتصل بي «حسن المزهون»:

- «سعيد»، يا رجل، هل رأيت حوارك في الجريدة، ما الذي فعلته؟

- ماذا فعلت؟

- لقد أحرقت الدنيا، دعني أقرأ لك العنوان الرئيس في الصفحة الأولى: «وهو في غيبوبة الموت.. روائي تُسرق فصول روايته».

- يا رجل! في الصفحة الأولى؟!

- نعم، دعني أقرأ لك العنوان الفرعي: «صديق للروائي الفقيد: عرفنا السارق، والشاهد حيٌّ يُرزق، والاتحاد العام للأدباء يجب أن يتدخَّل».

- وبرأيك، هل سيتدخَّل؟

- نعم يا صديقي فهذا واجبهم، اتصل بي رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب وطلب مني رقم موبايلك.

- يا «حسـن»، يجب أن نجعل من الموضوع قضية رأي عام، يجب أن تكتـب أنـتَ وبقية الأصدقـاء من الأدبـاء والروائيين، وجمعية القصة أيضًا، مقالات حول الموضوع.

- سـأكتب، وسـيكتب كذلك صاحب رواية «الراووق»، وصاحب روايـة «موت الأب»، وصاحـب المجموعـة القصصية «أصوات عاليـة»، وكذلـك صاحب رواية «كراسـة كانون»، وأيضًا الشـاعر صاحب ديـوان «صعاليـك بغداد»، صديـق «مرهون»، والشـاعر صاحب ديوان «السنوات اللقيطة»، الذي يعيش في لندن، وصاحب روايـة «اليوسـفيون» التـي صـدرت مؤخـرًا فـي بغـداد، وكذلك صديقـك من الكوفة الـذي أصدر كتـاب «الحضـور والتمركز»، وكتاب «محنة الهوية»، وأرسـلتُ رسـالة قصيـرة إلى صديقنا في سـدني صاحب كتاب «البنى الأسـلوبية»، وإلى نقيب الصحافيين الذي قال إنه سيصدر بيانًا في هذا الشأن، وغدًا سأكتب رسالة إلى منظمة حقوق الإنسـان، وعليك يا «سعيد» أن تطلب من زوجتك «مريم» الاتصال بعددٍ من الكاتبات والروائيات والصحافيات من صديقاتها؛ لحشـد الرأي، وشـد عزم رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتاب، وكذلك محامي الأدباء.

- نعم يا «حسن»، سأفعل كل ذلك، سأنتظر مكالمة رئيس الاتحاد.

ودّعته، قائلًا له:

- أشكر لكَ اهتمامك يا صديقنا الوفي، تحياتي لك.

وبينمـا كنت أضع هاتفي الخلوي على أريكة الصالة وجدته يرنُّ ثانيـة، كان رئيس اتحاد الأدباء، تحدَّثنـا عن الموضوع، وطلب مني الحضور إلـى مكتبه في مقر الاتحاد قرب سـاحة الأندلس للتداول في الأمر مع محامي اتحاد الأدباء والكتاب «عمَّار القاضي».

فـي اليوم التالـي، كانت المعلومـات متاحة أمـام رئيس الاتحاد والمحامـي معًـا، زوَّدتهما باسـمها الكامل: «نهـى ردَّام مصطفى»، واسـم الشاهد «خليل عبد الله نايف» الشهير بـ «أبو نادية»، وكذلك اسـم الطبيـب «أحمـد عز الديـن الجبـوري»، وعنوان مسـكن أهل «نهـى»، وبمعلومات عـن يوم الوفاة، واسـم أم «مرهـون» الكامل، علـى أن الدعوة القضائيـة موجَّهة من اتحاد الأدبـاء ضد «نهى ردام مصطفى»، أرملة الكاتب الراحل «مرهون الشاكر».

اتصلت «مريم»، قالت لي: «هل سمعت ما جاء في المذياع؟»

أخبرتها بالنفي، وسألتها: «ماذا هناك؟»، فقالت:

- إن برنامـج «مبدعـون فـي أسـبوع» تطـرَّق إلى ما نشـرته صحيفة «المدينة»، التي تعمل «وفاء السامي» فيها، ونقلوا عنك ما قلته في حوارها معك بشـأن فصول رواية «مرهون»، حتى إن أم «مرهون»

سمعت البرنامج، وفرحت لكلامك الذي أوردته المذيعة نقلًا عن الجريدة، وكذلك استضافت المذيعة في البرنامج ثلاثة أدباء أحدهم روائي، واتصلت هاتفيًا بنائب رئيس اتحاد الأدباء للحديث عن الموضوع.. وقالت المذيعة إن الحلقات القادمة من برنامجها ستواصل تسليط الأضواء على قضية رواية «مرهون الشاكر» المعنونة بـ«ينحني الصابر للوجع». وذكرت أنكَ سوف تكون ضيفها، أقصد ضيف برنامجها في الحلقات القادمة.

كانت تتحدث بحماسٍ ملحوظٍ، ثم صمتت ربما لالتقاط أنفاسها، قبل أن تضيف:

- يا «سعيد» يبدو أن الموضوع أخذ مساره الطبيعي لدى الرأي العام.

من جانبي، أخبرت «مريم» عن لقائي برئيس اتحاد الأدباء والمحامي، وأخبرتها أيضًا أن وزير الثقافة طلبني للقائه، واتصل بي «حسن المزهون» أيضًا، وأخبرني عن جهوده في هذا المجال.

في المكالمة ذاتها، أخبرتني «مريم» أيضًا بأن بطنها للتوِّ بدأ يبرز إلى الأمام، وأن الدوار بدأ رحلته معها، وصارت تشتهي أكلات منسية، فأخبرتها بأنني سأكون في المساء عندها.

# 28

بينمـا كانت قضية فقـدان فصلين من فصول الروايـة تتفاعل في الأوسـاط الصحافيـة والثقافيـة والإبداعيـة المحليـة، وجـدتُ من المناسب قراءة الفصل الثالث من فصولها.

هـذا مـا فعلتـه بعـد أن وضعـت فصـول الروايـة في مـكان آمن لا يعرف أي أحد به سوى «مريم».

ليس هذا فقط، بل أخذت الفصول المتوفرة بحوزتي إلى صديقٍ أثق فيه، وطلبت منه استنساخها كإجراءٍ احتياطي..

وعندمـا عـدت إلـى المنـزل، أخـذت بقـراءة الفصـل الثالـث، واستوقفني الملفوظ السَّردي الآتي:

***«كلَّما سـعيت إلى أن يكون بيننا كائن صغير يُشـبهنا معًا أو حتى يُشبه سُهى، وجدتُ نفسـي في مغامرة حمقاء، كنت أستجمع قواي النفسـية والروحية والبيولوجية والجنسية لأيام عدَّة لكي أدلق حلمي الساخن في فجوة الخلاص اللاهبة لدى فَجْرِي الثاني.. كانت سُهى تلفـظ حلمي الدافئ ذاك حتـى لا ينمو روحًا أخرى، كانت تُفسِّـخه***

*داخل رحمها حتـى عثرت يومًا في حقيبتها على حبوب منع الحمل عندمـا كانـت مُنهمكة فـي مكالمة هاتفيـة طويلة مع مَـنْ تدَّعي أنَّها صديقتهـا.. كنـتُ أفكِّر يومها بأن وجـود طفلٍ صغيـرٍ بيننا قد يطرد رائحة الذكورة العفنة من جسـد سُـهى الخائن ويعيده بعد توبته إلى عالم البراءة والعفَّة، كنت أعتقد أن إطعام الأم لطفلها الرضيع يُنسيها التفكير في أي خيانة محتملة، لكن فَجري الثاني ذاك لا يُريد أي كائن ملائكي بيننا، وفي الوقت نفسه، لا يُريد هجران عفونة الخيانة.. كان عليَّ الانحناء أكثر لهذا الجنون الموجع».*

اللعنـة عليكِ يا «نهى»، كان الرجل يريـد طفلًا منكِ، وكان على اسـتعداد لنسـيان كل خياناتك وقذاراتك مع السـافل القميء الذي كان يعبث بلحمك..

أخـذتُ أقرأ ناهمًا السـطور تلو غيرها في صفحـات ما تبقَّى من هذا الفصل حتى استوقفتني فقرة سردية، جاء فيها:

*«يا سُـهى، أنتِ تعرفين أن أشـقائي الثلاثة رحلوا، ماتوا، ضاعوا في متاهة الوطن المُعذَّب، ولم يبقَ من نسـلنا سـواي، وأنتِ تعرفين أنَّ أمنيـة أمي هي أن يكون لها حفيدها الذي تنتظره، يجب أن تراعي هذه الأمور، أريدُ منكِ طفلًا.. طفلًا يا سُهى.*

*- أخبرتـك سـابقًا بأنني لا أنجـب أطفالًا، رحمي خانني، أحشـائي عوراء، أنا امرأة من صنف العواقر، ألا تفهم؟*

- كلا أنتِ لستِ عاقرًا؛ لقد سألتُ طبيبتك، وقالت لي: إنَّك لستِ عاقرًا، ولا أنا لديَّ أي عقم أو مرض في هذا الشأن.

- هذا يعني أنك تتجسَّس على شؤوني يا نذل، يا خسيس، لماذا لم تحبل زوجتك الأولى بطفلٍ، هل كانت من العواقر أيضًا، أم أن رجولتك كانت في إجازة؟

- اخرسي يا وضيعة، المرحومة كانت أميرتكِ، كانت التاج الطاهر على رأسكِ، لا تتحدَّثي عنها بهذه الطريقة الفجة، أنا بنفسي اكتشفت أنك تتعاطين حبوب منع الحمل، لقد رأيتها في حقيبتك، ماذا تفعلين بها إن لم تستعمليها معي؟

- هذا يعني أنك تنبش في حقيبتي، وتعبث في أشيائي؟

- نعم، هذا حقي، اذهبي إلى الحمَّام، اغسلي عاركِ يا وقحة؛ فرائحة قوَّادكِ القذرة ما زالت عالقة بلحمكِ الرجس، على نهديكِ الملسوعَين بأنياب الفجار، على جسدكِ المشوه ببقع عضٍّ وقرصٍ حمراء وزرقاء..

- أنا لست عاهرة يا بن العاهرة، أنا أشرف منك، وأشرف من عشيرتك، القوَّاد إياه سيقتلك، كلا، أنا سأقتلك بكفي، سأقطع عنقك، وأرمي رأسك في قمامة أمك، وإذا كنتَ تريد مني طفلًا يُشبهك، من دمك الفاسد، قلتُ لكَ: يجب أن تسجِّل ملكيَّة بيت أمك باسمي، وعندها سيكون لك طفل مني يحفظ سلالتك عبر

*التاريـخ، أما حبوب منـع الحمل فهي ليسـت لك، إنَّما لعُهري؛ لذلك الذي تسميه قوادي عندما...*

*- اخرسي يا ساقطة.. يا منحطّة...».*

هكذا إذن، كانت ملحمة لا هوادة فيها.. هذا اعتراف صريح بأن «سُـهى» في الروايـة كانت عاهرة، بل إنها تُشـهر ذلـك أمام زوجها وجهًا لوجه. وبات واضحًا أيضًا أنها تريد منه نقل ملكية بيت والدته إلـى ملكيتهـا، لكن «مرهون» ليس بذاك الغبـي، فهو يعرف ما ترمي إليه هذه الـ «سـهى» في رواية «ينحنـي الصابر للوجع»، و«نهى» في حيـاة «مرهون» الواقعية، أي إنها تريد ابتـلاع البيت، والهروب تاليًا إلـى مجهولٍ ما، بل وربما كان هناك ما هو أفظع، ربما تقتله؛ فالمرء مخبوء تحت لسانه، كما قال أحد الحكماء.

# 29

أخذتْ المسائل القانونية مجراها المعتاد بين القضاء والاتحاد العام للأدباء، وصارت قضية رواية «مرهون» تتضاعف في الأوساط الثقافية.. في اتحاد الأدباء، وفي شارع المتنبي، وبين المؤسسات الثقافية، وفي المقاهي الأدبية، خصوصًا أن اتصالات «حسن المزهون» بعددٍ من المثقفين في الداخل والخارج آتت ثمارها، فهم وفوا بوعودهم وكتبوا حول الموضوع، ودخل موضوع رواية «مرهون الشاكر» في مناقشات بوابات التواصل الاجتماعي، والتي للأسف حتى الآن لم أُجرِّب عالمها، لكن «المزهون» ينبش في صفحاتها، وصوره تصل في خلال لحظات إلى كل مكان في ظل انتشار أبناء بلدنا في كل دول العالم، ولا أدري كيف تعلَّم «المزهون» كل ذلك، ومن أين يأتي بالكهرباء لتشغيل الحاسوب أو اللاب توب كما يسميه عندما يريد أن يُظهر انتماءه للراهن، كما يقول ذلك أمام الآخرين.

عاملون في صحف محلية مختلفة اتصلوا بي، وصرتُ، بين ليلة وضحاها، نجم البرامج الثقافية على هامش نجومية «مرهون»،

وكانت «مريم» تتابع مجريات ما تقرأ وتشاهد في التلفزيون، وتسمع من المذياع ومن الناس حول الموضوع، وكانت ترفدني بكل التفاصيل..

رسالة أخرى بعثها لي الناشر اللبناني، يستعجلني فيها بإرسال المخطوط في حال اكتماله.. فكتبت له، وهو الذي سمع بما يجري حول رواية «مرهون»؛ لأخبره بأن الرواية صارت ملفًّا في القضاء، وأن جهودًا حثيثة مشتركة تجري للحصول على ما هو مفقود من فصولها.

اتصل بي المحامي «عمَّار القاضي»، وأخبرني بأنه تكلَّم مع «نهى» زوجة «مرهون»، هاتفيًا، وقال: إنها أنكرت أن تكون على علاقة بفقدان فصلي الرواية، وأكد لي أنه ألمح لها بوجود شخص شاهد على الموضوع، فقالت له: «لا يوجد أي شاهد حول الموضوع، وإذا كان سعيد الدهان، صديق المرحوم، قال لكَ ذلك، فهذا الشخص كذاب، فهو يريد أن يبيع الرواية إلى دار نشر ويقبض ثمنها».

كم أنتِ لعينة يا «نهى»، أنا أبيع رواية «مرهون» وأقبض ثمنها؟

يا لكِ من امرأة غبية، ولكن ماذا تتلقَّى من امرأة بائخة سوى اتهامات بالية من هذا النوع؟

أخبرني المحامي أيضًا، بأن الجلسة الأولى الخاصة بالتحقيق ستُعقد يوم الاثنين التالي، وطلب مني عدم حضورها لئلا تحدث مشادَّة بيني وبين «نهى»، فعلى ما يبدو أن الشيطان يسكن هذه المرأة، وقال لي: «ألم تسمع بالمثل القائل إن النساء حبائل الشيطان؟»

عبارة جميلة قالها المحامي: «الشيطان يسكن هذه المرأة»، ويبدو أنه استنتجها من مجرَّد مكالمة هاتفية واحدة مع تلك التي يسكنها الشيطان.. إلا أنني لم أتفق معه في أنَّ النساء هنَّ حبائل الشيطان، فهل من المعقول أن تكون زوجتي «مريم» من هذا النوع؟ هل توافق «مريوم» بأن تكون حبلًا لشيطان يغويها حتى تربطني بنخلة الحديقة كزوج عاق!؟

# 30

كنت أستمع إلى نشرة الأخبار المذاعة.. كان لديَّ جهاز راديو صغير أضع في بطنه بطاريات صغيرة ليبدأ تغريده عبر الأثير المُثقل برائحة المحروقات في سماء العاصمة، سمعت في النشرة أن يوم أمس هو اليوم الأول، ومنذ أول انفجار سيارة مُفخَّخة جرى في شهر أغسطس 2003 عند مقر سفارة الأردن في العاصمة، تنفجر فيه ثلاث سيارات مفخخة في وقتٍ واحدٍ، لكن المذيعة لم تذكر عدد الضحايا في تلك العمليات الغادرة.

وجدتُ نفسي في حنين إلى حديقة منزلنا، بدأت أعيد ترتيب كراسي الجلسة وكأنني بانتظار ضيف أو ضيوف، وبالطبع لا أفكر في انتظار ضيفة سوى الصحافية «وفاء السامي»، وبحضور صاحبة الشأن، حرمي السيدة «مريم الشبلي» التي هداني الرب إلى كسب ودِّها ورضاها عني، وعن عشيرتي، وعن سلالتي أبد الدهر..

اتصلتُ بها، سألتها عن ولي عهدنا الذي يسكن رحمها سيدًا، يأمرها وينهاها، وسألتها عن علامات ومياسم ما بدا من الحمل على وجهها، فقالت:

- كل شيء أخذ يتغير، صرت أشعر بشفتي السفلى أكبر من حجمها، بل وتهطل نزولًا..

- هذا شيء جميل، أتمنى أن تبقى هكذا لكي تطفئ ظمأ العاشق الولهان.

- أي عاشق؟

- حبيبكِ المغرم بشفتيكِ العذبتين.

- أي حبيب؟ مَنْ هو مغرم؟

- «سعيد»، زوج «مريوم».

انفجرت ضاحكة، لكنَّ رسالةً تراءت لي من شاشة موبايلي، اعتذرت منها، وأنهيت المكالمة لأنظر فيما جاءني..

كانت رسالة طويلة، تبدو قصيدة حرَّة أو قصيدة من الشعر المنثور كما يسمِّيها أحد الشعراء، وفي نهايتها ظهر اسم مُرسل الرسالة، وهو الشخص الذي ترجم قصيدة «جورج تراكل» وعنوانها: «في ألبوم الضيوف»، وأرسل إليَّ نص ترجمتها العربية ولم ينشرها بعد، فشكرته بحب، وأبدى أسفه بشأن موت «مرهون»، وتأسَّف ثانية كونه لم يلتقِه قبل رحيله، وأثنى على تجربته في التناص مع أحد مقاطع قصيدة «جورج تراكل» تلك، وأخذ يتحدَّث عن تجارب الكتَّاب الكبار في هذا المجال، ولعلَّ الروائي الإيطالي «أمبرتو إيكو» أحدهم، ناهيك عن آخرين كثر، وترحَّم على روح «مرهون»

قائلًا: «ألف تحية لك يا مرهون الشاكر، والرحمة على روحك الطاهرة»، ثم طلب مني نسخة من الرواية عند صدورها.

ودَّعته بمحبة دافئة، وكتبت له بأننا سوف نلتقي في المستقبل القريب..

رحتُ أفكِّر في مسألة التناص، وتذكَّرت محاضرات أساتذتنا في الجامعة عن هذا المفهوم المهم، والذي كان «مرهون» متحمسًا له، وحماسته تلك أثمرت إبداعًا في نصوصه.

ما فعله «مرهون» في روايته، المغلوب على أمرها «ينحني الصابر للوجع»، هو أنه مارس فعل التناص ابتداءً من عنوانها؛ لقد اصطفى مقطعًا من قصيدة «تراكل» كعنوان لروايته الأخيرة، وملفوظ «ينحني الصابر للوجع» هو تثمير لفعل التناص الذي ظلَّ مستترًا، على عكس نصوصه القصصية والروائية الأخرى التي كان التناص فيها صريحًا، إلا إذا كان «مرهون» قد كشف عن مرجعية عنوان روايته عبر الإشارة إلى «تراكل» في الفصلين المفقودين، فذلك لا أعرفه حتى الآن!

لقد فرحتُ كثيرًا بهذا التواصل الإبداعي الخلَّاق، وهو ما شدَّني أكثر لقراءة نص القصيدة التي وصلتني، فاتخذت موضعي كقارئ مُحتفٍ بمسائه الشعري، وبصوتٍ مسموع، بدأت أقرأ القصيدة من دون بلوغ صوتي مسامع الجيران من حولي:

«دائمًا، ومن جديد،

تعود الكآبة..

يا رأفة النَّفس الفريدة..

وينصهر يوم ذهبي

صوبَ نهايته،

وبتواضعٍ،

ينحني الصابر للوجع

وجنون ناعم

انظر

شفق السماء من جديد

ويعود الليل

وينوح بفان..

ويكابد معه الآخر

مرتجفًا تحت نجوم

الخريف..

وعامًا بعد عام

ينحني الرأس بعمقٍ

أكثر».

أعـدتُ قراءتها مرَّة أخـرى وأخرى، ولكن بصمت هـذه المرَّة، بغيـة القبـض على دلالتها الكلية، وقرأتها مـرة رابعة أيضًا لكي أجد «مرهون» في فضائها الدلالي الكلي، كما يقول النقَّاد.

جعلـتُ بصيرتـي القرائيـة تركِّز علـى الملفوظ الشـعري الأول «دائمًـا، ومن جديد تعود الكآبة»، هذا هو الهمُّ المؤلـم؛ فـ«مرهون» دخـل نفـق التيـه الكئيـب عاجزًا عـن فعـل أي شـيء؛ أي فعل، أي حركة، سـوى الصبـر على ما جـرى؛ ليأتي ملفوظ «ينحنـي الصابر للوجـع» كتحصيل حاصـلٍ، كنتيجةٍ، كمآلٍ ومصيرٍ عاسـفٍ للذات الذكوريـة المعطلـة عن تغييـر الحال بكل مـا فيه من خـرابٍ ودمارٍ ومـوتٍ وفضيحـةٍ ورذيلةٍ ودعـارةٍ وعهرٍ.. لم يفعل «مرهون» شـيئًا سـوى الانحنـاء والخضوع والإذعان لقدرٍ غامـضٍ حتى التفَّ عليه المرض، وأودى به إلى مصيره الموعود به.

هكذا كنت أفكِّر وأنا المغمور في جو الرواية من جهة، وفي حياة «مرهـون» الذاتية والوجودية من جهة أخرى.. «أجد من المناسـب قـراءة الفصـل الرابـع»، هكذا قلـت، فدخلـت إلى حجـرة مكتبتي كالمجنون، وسحبت بيديَّ الصندوق من تحت سريري الخاص في المكتبة، اسـتخرجتُ الفصل الرابع، وعـدت إلى الحديقة، رغم أن

الشمس بدأت تلم خيوطها عن أغصان العنب الوارفة.. جلست أقرأ الفصل الرابع الذي يبدأ بالمقطع السَّردي الآتي:

*«كانت أمي تمسك بيدي، تقبض على غضبي، تسوِّر حنقي، تلجم ثورتي في أي لحظة أفكِّر فيها بالتخلُّص من فَجْرِي الثاني، الفَجر الغائم، الخائن، فَجر الرذائل المقيتة، من سُهى، المرأة العاق.. ولكن، ومنذ تلك الليلة التي أيقظتني فيها أمي منتصف الليل، وأخبرتني هلعةً بأن سُهى دخلت البيت، وعندما دلفت إلى الصالة سقطت أرضًا.. منذ تلك الليلة التي كانت فيها سُهى مخمورة سُكرًا، والبقع الحمراء منتشرة على رقبتها، وفي أعلى نهديها، منذ تلك الليلة، صار يقيني بأنني العار، الرجل العار، الزوج العار، الإنسان العار الذي يشهد لحم زوجته تلحسه ألسنة الرذيلة وتعضه أنياب الخيانة.. في تلك الليلة الليلاء، عادت أمي وألجمتني ثانية عمَّا بدا من سُهى، قالت لي بتوسُّلٍ: يا بني اتركها للغد، للصباح؛ بين ساعة وأخرى يتغير الحال. وعندما حملتها إلى سرير نومنا، كانت رائحة الخمر تمارس حضورها المعتق وهي تنبعث من كل مسام جسدها الخاوي من أي كرامة. كانت تقول لي، في تلك اللحظة، وبلسانٍ ثقيل الكلام: هل رأيت يا زوجي المُثقَّف، كيف أنا عاهرة بشكلٍ رسمي، زوجة محترفة في الفجور والغرام والخلاعة، لا أخونك في النهار فقط بل وفي الليل أيضًا، ماذا أفعل؛*

أنا خُلقتُ لأخونك، لأنام في حضن غيرك، هذا المساء، مثلًا، أحياه معي ثلاثة من عشّـاقي، أحدهـم فؤّادي الذي تعرفه ولا تعرفه، واثنان جُـدد، أحدهما ضابط الدورية في منطقتنا، والآخر إرهابي، تصوَّر.. كل منهما يتربَّـص بغيره، الضابـط يتربص بالإرهابـي وهذا الأخير يتربَّص بـالأول، لكنهما، ولأول مرَّة، يجتمعان على جسـدي ليلًا.. الضابـط والإرهابـي، لأول مرَّة يتفـق ضابط مع إرهابـي على قضية واحـدة هي قضية اسـمها جسـدي، جسـدي هو وطنهمـا الحقيقي، كلاهمـا يحـرس جسـدي بطريقته الخاصَّـة كما يحـرس كل منهما الوطـن بطريقتـه الخاصَّة، قلت لـكَ إن الوطن يريد منـي أن أُضحّي من أجلـه، أن أكون عاهرة، وهذه مسـؤولية تاريخية، كما كان يقول رئيسـنا الفَـارٌ، أمـا أنـتَ فيريد منك هـذا الوطـن أن تكـون راضخًا ومنحنيًـا حتـى يرضى عنك، أنْ تكـون المثقف الراضـخ، ماذا أفعل لـكَ، أنتَ لا تريد أن تكونَ راضخًا؛ لا لوطنك ولا لزوجتك، سُـهى الفاجرة، كما تسـمِّيها أنت بينك وبينـك.. جميلة هذه العبارة: بينك وبينك كما يقول الشـاعر الفلسـفوووس! اتركنـي.. اتركني.. فأنا نتنة مثل زهرة عطنة، كما قال صاحبك شارووول بودلير، أنا حامضة الرائحة، أما أنتَ فبلا رائحة.. اتركني كما طلبتْ منكَ أمك العاقلة، اذهـب يا حبَّاب ونم في حجرها، حجر الوالدة، أكرِّر كلمة حجرها، كما جاءت من الموروث.. أقول لك: اتركني الآن، فأنا؛ أنا السـيدة

*سُــهى حرم الأستاذ رشــيد، أنا كائن نجس وأنت طاهــر، أنا مومس وأنت شــريف، أنا مومس، كما قال شاعرك هزيل الجسد بدر شاكر السيَّاب في قصيدة عصيــدة المومس العوراء أو الســوداء، لا أذكُر، اتركني يا بن الــ...».*

«السيَّاب» هزيل الجسد يا تافهة؟

صار جسدكِ وطنًا يلهو به العابثون؟

أيُّ كارثةٍ أنت؟

أيُّ قدرٍ أحمق دمَّر حياتكَ يا «مرهون»؟

أيُّ بذاءةٍ شــيطانيةٍ تســكن داخلكِ يا «سُــهى» أو يا «نُهى» فالأمر سواء؟

بدوتُ مشــمئزًّا ممَّا قرأت في هذا المقطع السَّــردي، «سُهى» في الروايــة تتكلَّم بلا شــعور، إنها تُطلق عنان لا شــعورها وهي تتكلَّم، أُلاحظ مفرداتٍ ورموزًا ثقافية وسياســية تسخر منها، وهذا يعني أن تلك الرموز قابعة في لا وعيها..

«هل سُــهى تخــون رشــيد؛ زوجها فــي الرواية، لكــي تغيظه؟». تساءلت بحيرةٍ مقلقةٍ..

لا أدري، ســأعرض هذا النــص على «مريم»، فهي امــرأة، لعلَّها تعطينــي تفســيرًا لشــخصية هذه الـــ «ســهى»، إلا أنني دعيــت أناي الحائرة لقراءة الفقرة السَّردية ما قبل الأخيرة في هذا الفصل:

«في تلك الليلة الليلاء؛ الليلة المُضاءة بالفضيحة، لم أنم، بالكاد أقنعت أمي بأن تخلد إلى نومٍ وإن كان كاذبًا، كانت تبكي حال سُهى أنينًا، وحال الكلام الذي سمعته من سُهى وهي تدلقه بلسانٍ مخمورٍ، يعج بالخلاعة وجلْد الذات، وقفت عند باب غرفتنا، أردتُ أن تغرق سُهى المخمورة في نومٍ عميقٍ، نويتُ خلع تنورتها عن جسمها فجلستُ عند حافة السرير، كانت رائحة الويسكي تنبعث من أنفاسها، وملابسها تفوح منها رائحة نتنة، بدأت أرفع أطراف تنورتها عن ساقيها حتى وصلت إلى وسطها فبدت بقعًا حمراء على أسفل ردفها الأيمن، وكذلك الأيسر، موزعة على لحمها البضّ جرَّاء عضٍّ بأنيابٍ لاهبةٍ، رفعتُ تنورتها أكثر نحو ظهرها وهي النائمة على بطنها فلم ألمح شيئًا، كانت آثار سوائل ناشفة قليلًا على جسدها، رائحتها تزكم الأنوف، أعدتُ ذيول تنورتها إلى وضعها الطبيعي، تركتها متوجِّهًا نحو حقيبتها اليدوية، فتحتها.. وجدتُ هاتفها الخلوي، صرت أبحث في قائمة الأرقام حتى وجدتها، كانت أربعة أرقام لأربعة أشخاص، رقم الضابط، ورقم الإرهابي باسميهما، أما الرقمان الآخران فبلا أسماء، دوَّنتُ الأرقام الأربعة في ورقة جانبية صغيرة، ورحت أبحث في ملف الصور والأفلام في موبايلها، وهنا ظهرت الفاجعة الكبرى؛ إذ ظهرت سُهى في أحد الأفلام وهي ترقص عارية، سكرانة في غرفة أجهلها، وفي فيلم

ثـانٍ كانت مسـتلقية على كنبةٍ قذرةٍ مستسـلمة للضابط الذي يحاول التهامها بشـراهةٍ، أما الفيلم الثالث فكان أكثـر خلاعةً وفداحةً، كان مـن أسـمته بالإرهابي قـد جعلها مستلقية على ظهرهـا حتى هوي عليهـا ولـم تبرز الكاميـرا وجهـه، كان منفعلًا وهو يتكلم بشراسـةٍ، قائـلًا: ...، افتحي... أيتها الـ ...، سـيكتب الله لـك غدًا ألف قصر هناك في ...، كلنا نجاهد من أجل ...، والوطن، والأمة، و ...، ومن ثـم مال بوجهه نحو الضابط الذي كان يُصوِّره بهاتف سُـهى الجوال قائـلًا له: عليـك أن تصوِّر هـذه المأثرة لتتعلَّم الإمـاء التضحية بكل شيءٍ من أجل الأمة، والوطن، و ...

أغلقـتُ موبايلهـا، وعدتُ بـه إلى حقيبتهـا.. هذه أدلـة واضحة علـى خيانتها، بيد أننـي إذا أخذت الأمر إلـى المحاكم لا أفضح إلَّا نفسي، وأخسر سمعتي بين الناس، وأنا شخصية مشهورة، فالأفضل لـي انتظار خيوط ضـوء الصباح لكـي أتصل بوالدة سُـهى، وأطلب منهـا المجيء بدعوى أن ابنتها في حالة صحيَّة سيئة، فبقيت لثلاث سـاعات حتـى صـارت أميـال السـاعة الحائطية تشير إلى السـابعة صباحًـا، اتصلت لثماني مرَّات بوالدة سُـهى حتـى أجابت، أخبرتها بالموضـوع، فقالت: أنا قادمة.. حرصـتُ خلال ذلك على أن تكون الأمور هادئة في البيت لكيلا أجعل أي شـيء يوقظ سُهى من نومها، وريثمـا جـاءت والدتها بعـد حوالي خمسـين دقيقة، كانـت الأمور

*تجـري كما شـئت، فأخبرتهـا بالقصَّة، وطلبتُ منها أن تشـم أنفاس ابنتهـا النائمـة، ومن ثم عرضـت لها الأفـلام الموجودة فـي موبايل ابنتها حتى راحت تلطم وجهها كاتمة أنين حسرتها، وطلبتُ منها أن توقظ ابنتها، وتأخذها إلى منزلها فهي في حكم الخائنة، لكن والدتها صارت تبكي، وراحت تُقبِّل كفيَّ مذعورة، بل وهوت صوب قدميَّ بالـكاد تلفظ هواءً تتنفس لتقبيلهما لكيـلا أفضح ابنتها بين الناس أو أطلقها، فوعدتها بذلك لكي تهدأ، ودلفت والدتها إلى حجرة منامنا حيـث ابنتها النائمـة ورائحة الخمـر المتهاوية على ثيابهـا تفوح من أنفاسـها.. راحـت توقظها، ليس بكلام اللسـان، إنمـا بالبصاق على وجههـا، وبالضـرب علـى فخذيهـا وبطنهـا بلكمـات موجعة حتى اسـتيقظت مذعورة هلعة، وسحبتها من ساقها نحو الأرض، ومن ثم إلـى الصالة نحو الحمَّام وهي ترديها ضربًـا، وهناك صارت تضربها أكثـر وأكثر بنعالهـا، فتعالى صراخهمـا معًا حتـى أخرجتها والدتها مـن الحمـام متورمة الوجـه، وأخـذت حقيبتها الموجـودة في غرفة نومنـا وخرجتـا معًا، وبعد ثلاثة أيام بدأتُ أحـسُّ بتناقص الهواء في رئتي...».*

يـا للفداحـة؛ إرهابـي وضابط دوريـة! كيف جمعتِ يا «سُـهى» هذيـن النقيضيـن المائريـن على وليمة جسـدكِ الذي أهنتِـه وأنزلتِه منحدر الرذيلة والنهاية المبتذلة؟

كيف لكَ يا «مرهون» تريد مواجهة وحشين في غابةٍ مهجورةٍ؟

أيُّ قدرةٍ جعلتك ترنو إلى صوت صبرك ولا تفضح قاتلة حياتك أمام الملأ؟

أبهذا وجد مرض السرطان طريقه إلى رئتيك؟

ولهذا جاءتك الكآبة الغامَّة لتقضي عليك؟

ولهذا انصهرت أيامك الذهبية حتى تحوَّلت إلى معادن رخيصة؟

لم ترأف بحالك؛ لا نفسك، ولا روحك، فكنتَ الصابر المنحني لآلامك حتى تمكَّن الموت منكَ وأنتَ الذي كنت تنافره بعزم الرجال الأشداء.

«دائمًا، ومن جديد،

تعود الكآبة..

يا رأفة النَّفس الفريدة..

وينصهر يوم ذهبي

صوبَ نهايته،

وبتواضعٍ،

ينحني الصابر للوجع

وجنون ناعم..»

# 31

أيقظني دويٌّ انفجارات متتالية خضَّت كيان العاصمة كما لو كانت هزة أرضية.. وما هي سوى لحظات حتى رنَّ هاتفي، كانت «مريم» مرتبكة في كلامها، قالت: «أين أنت؟»، قلت لها: «في سريرنا الذي يشتاقك دائمًا»، تمتمت بكلمات دعاء، واستأنفت كلامها قائلة: «وقع انفجار كبير قرب وزارة الثقافة، لقد قلقت عليك يا حبيبي».

قلت لها: «الحمد لله أنني نويت ألا أذهب إلى العمل هذا اليوم».

شعرت أن «مريم» اطمأنت وإن كان خوفها يبدو هذه المرَّة مختلفًا، ربما بسبب الكائن الذي ينمو في بطنها، تبدأ مخاوف النساء على حياتهن أكثر عندما ينمو كائن ما في أرحامهن، ومخاوف «مريم» في محلِّها، مَنْ لها إذا شظَّى جسدي انفجار عبوة ناسفة أو مزقني حزام ناسف حقير في يومٍ ما؟

حتمًا ستضيع «مريم»، وسيضيع «موهون» الصغير معها كما هو حال اليتامى والأرامل اللواتي استُشهد أزواجهن في عمليات القتل المبرمج التي تجري بلا هوادة.

لا بُدّ لي من منعطف حياة جديدة بحيث، وفي كل صباح، أجد روحي في قبضة جسمي، وفي كل مساء أجدني أضع رأسي نائمًا على وسادتي القطنية وليس على حجارة داخل قبر.

أيُّ نهارٍ تعس هذا الذي أبدأه بمثل هذه الأفكار، وأعيشه بمثل ما جرى قبل قليل من خراب لا أعلم كم من الناس الأبرياء قضوا فيه؟

اللعنة عليكم، ماذا تريدون منّا؟

حروب، وحصار اقتصادي، وعزلة دولية وعربية، عزلة ثقافية وعلمية ودوائية..

ماذا تبقّى عندنا حتى تأخذوه في قائمة غنائمكم أيها الأوغاد؟

رنَّ هاتفي الخلوي، كان رقمًا أجهله، ولذلك لم أُذعن له، دخلت الحمّام، وسمعته يرنُّ ثانية، ومن ثم توجّهت إلى المطبخ من أجل فطوري حتى سمعته ثالثة يرنُّ، انشغلت بإعداد فطوري، ومرَّة رابعة سمعته يرن، جلست في الصالة وما إن أعددت لقمة خبزٍ لأغمسها في كأس شاي حتى جاءتني رسالة، فقرأتها: «يا بن الكلب، يا نذل،

قريبًا سيكون دمك مهدورًا لتلحق بصديقك السافل مرهون الشاكر..
نهى».

هذا تهديد.. تهديد مجرمة بدأ القضاء يحاصرها، والآن صرتُ طرفًا في قضية رواية «مرهون»، الآن أمتلك تهديدًا غير ناعم، كتبت لها: «شكرًا لكِ، الإناء ينضح بما فيه». فردَّت بعد دقائق برسالة: «عندي رجال يقطعون لسانك وأصابعك الخبيثة يا جبان».

سعدتُ كثيرًا عندما قرأت الرسالة القصيرة الثانية، لما فيها من تهديد يمكن عدَّه دليلًا على جرمية «نهى»..

أما الرجال الذين تعنيهم، فهما الإرهابي وضابط الدورية، خونة الإنسانية الجُدد..

أنهيت فطوري، اتصلت بالمحامي «عمَّار القاضي»، وأخبرته بموضوع تهديدات «نهى»، قال لي: «احتفظ بها، تراها أدلة مفيدة للمستقبل، وفي الوقت نفسه كُن حذرًا منها؛ فأنت تعرف أن هذه المرأة يسكنها الشيطان، ويمكن أن تتفق مع حثالة بشر ما على قتلك بدمٍ باردٍ».

وعدته بأنني سأكون حذرًا في هذا الموضوع، وهو ما بدأتُ أفكر فيه بجدية.

المحامي لا يعرف ما قرأته يوم أمس في الفصل الرابع، رغم أن ما ذُكر فيه غالبًا ما يُصنَّف في مجال السَّرد المُتخيَّل، لكن هذا

السَّــرد، وعلى نحوٍ أو آخر، تراه «يُسـرّب الواقـع»، كما يقول الناقد المغربي «سـعيد بنكراد»، ولو قـرأ المحامي ما قرأته أمس في رواية «مرهـون» لتوصَّـل إلـى الطبيعـة الإجراميـة التي تسـكن «نهى» في الواقع الواقعي، وتسكن سُهى في الواقع المتخيَّل سرديًّا.

مـن جانبـي، أخـذتُ تهديـدات «نهى» لـي على محمـل الجد، أبلغـت بضـع رجـال يعرفونني في الشـارع الذي أسـكن فيـه بأنني تعرَّضـت إلى تهديداتٍ، وكذلك أبلغت مديـر إدارة الوزارة بالأمر، وذهبـت إلى صديـقٍ لي يمتلك خبرةً في عالـم الهواتف الخلوية أو الجوالـة، وطلبتُ منـه طبع الرسـائل التـي وردت مـن «نهى» على ورقـة، رغـم حرصي على عـدم معرفـة الكثير من النـاس بموضوع التهديدات التي وردت في رسـائل عاشـقة الإرهابي السيدة «نهى»، وذهبت، بعد ذلك، إلى بيت أم «مرهون»، وطلبت منها معاينة بعض أوراق «مرهون» أو دفاتره الصغيرة الذي كان يُسـجِّل فيها كل أرقام الهواتف من دون أن أُعلمها بالتهديدات، لا هي، ولا حتى «مريم»، لكيـلا تشـعران بالرعـب، وتحصَّلت بالفعـل على رقـم الإرهابي، ورقم ضابط الدورية، وبقية الأرقام التي كتب عليها «مرهون» كلمة «مجهولـة»، ما يعنـي أن ما كتبه «مرهـون» في روايته بوصفه سـردًا متخيَّلًا سـرَّبه من الواقع الواقعي إلى الواقع المتخيَّل، وهذا سيكون سـرًّا لا يعرفه أي أحد سـواي كي لا تسـقط الرواية في «التسـجيلية السـاذجة» كما يقول بعض نقَّاد السَّـرد الروائي، بيـد أنني، وقبل أن

أخرج من بيت أم «مرهـون»، وبعد اطمئناني على صحة «مريم» وحملها التاريخي كما أحب تسميته، سألتُ أم «مرهـون» فيما إذا كانت «نهى» تعرف مكان مسكني أم لا؟ فقالت لي: «إنها تكرهك أكثر مما تتوقَّع، لا تريد أن ترى وجهك، فكيف تعرف مسكنك إلا إذا كان المرحوم أخبرها عنه؟»

منحني جواب أم «مرهون» هذا بعض الهدوء، وبدَّد مخاوفي، لكنها الشريرة «نهى» تتمتَّع بخيالٍ نافرٍ، وهذا ما كان يحدِّثني عنه «مرهون» دائمًا؛ لذا يجب أن أكون حذرًا هذه المرَّة من حقدها ونواياها اللئيمة، وما يستتبع ذلك من تصرُّفات عدوانية محتملة..

مضت أيام عدَّة من دون أن أتلقَّى أيَّ مكالمةٍ مشبوهةٍ، ولكن أصابني مرض الحذر الفائق من مخاطر محتملة قد تحيق بي، وهذا شأن أبناء وطننا جميعهم الذين اعتادوا الحذر من أجل البقاء على قيد الحياة، ليس جبنًا لأنهم بصدد إرهابٍ أعمى وموتٍ أصم، إنما توخيًا، رغم أن الحذِرين طالتهم يد الغدر والاغتيال، وجزُّ الأعناق في حالاتٍ كثيرةٍ، فكم من المثقفين تم اغتيالهم، ناهيك عن غيرهم من بقية الناس؟

# 32

يكاد موعد جلسة التحقيق الأولي يقترب، وأتذكر نصيحة المحامي بألا أكون حاضرًا هناك، ولكن المشكلة الكبرى كيف لي معرفة ما سيجري هناك؟ أخذت أفكر حتى لاحت لي فكرة الاستعانة بصديقٍ أو بالأحرى بصديقةٍ، ولما كانت «مريم» شعرت بالارتياح إلى الصحافية «وفاء السامي» في لقائهما السابق، فالأولى الاستعانة بها، وهي حتمًا ستطير فرحًا إذا ما أخبرتها بموعد الجلسة.

فعلت ذلك، اتصلت بـ«وفاء»، وطلبت منها الحضور، فسألتني عن سبب عدم حضوري الجلسة، تذرعتُ بحمل زوجتي، وأخبرتها بأنني على موعد مع طبيبة «مريم» في يوم جلسة التحقيق نفسه، فأبدت «وفاء» تفهمها الإنساني لما سمعته مني.

مع ذلك، تراني لم أكتفِ بمصدرٍ واحدٍ، فقد اتصلتُ بصحافي صديقٍ لي يعمل في جريدة «الصباح»، وأبدى تفهمًا مماثلًا لما أبدته «وفاء»، وبذلك صار عندي أكثر من مصدر إخباري لحضور الجلسة، فضلًا عمّا ستجود به بقية الصحف والإذاعات حول قضية التحقيق مع زوجة «مرهون».

في صباح يوم جلسة التحقيق، وبينما كنتُ منهمكًا في ترتيب بعض الأوراق في مكتبتي المنزلية، جاءتني رسالة قصيرة عبر الهاتف من «مريم» كتبت فيها: «سعيد، أمس لم أنم حتى الفجر، أشعر أنني بحاجةٍ إليك، الجنين بات يأخذ كل طاقتي، أحتاج إلى دفئك، مضت شهور على الحمل ويمكن أن..».

آهِ من هذه الـ «مريوم» عندما لا تكمل عباراتها، عبارة «يمكن أن..» تنطوي على محذوف أو مُضمر غائب جسدًا حاضر دلالة، إنها تريد شيئًا من الدلع، الهمس الدافيء، وربما أشياء أخرى.. ولذلك يتوجَّب عليَّ استنفار طاقة رجولتي بحنان كوني، كما تحب «مريم» أن تقول ذلك دائمًا، لكي أدخل في منافسة وليِّ عهدنا المختبئ مؤقتًا في رحمها، والهانئ بامتصاص رحيق طاقتها بلا هوادة.

اتصلتُ بها، وأخبرتها بأنني في طريقي إليها، شعرتُ بغبطتها أكثر مما تشعر هي بها.. وفي الطريق إليها، أرسلت لي «وفاء» رسالة قصيرة تُعلمني فيها ببدء جلسة التحقيق، ومثول زوجة «مرهون» برفقة حارسين لا يشبه أحدهما الآخر، ما يعني أنهما ليسا أخويها، وهو ما يبدو غريبًا، فكتبت لها أنَّ هذا الأمر أصبح معتادًا في بلادنا المجنونة، رغم علمي أن السافلَين اللذين يرافقانها هما الإرهابي وضابط الدورية.

في طريق عودتنا إلى منزلنا، أنا و«مريم»، وهي التي كانت نائمة يهدُّها تعب ليلة لم تذق طعم النوم فيها، جاءتني رسالة قصيرة من

صديقي الصحافي كتب فيها: «عزيزي سعيد، نهى، زوجة المرحوم مرهـون، أنكرت أنها تملـك أي فصول من روايـة زوجها، وقالت: إنهـا ذهبت إلى المستشـفى، ولـم تَـرَ أي أوراق أو ملف إلى جانب زوجها قبيل وفاته في المستشـفى، فأخبرهـا المحقِّق بأن هناك أحد الشـهود يؤكِّـد وجود أوراق مخطـوط الرواية، وأنهـا عبثت بأوراق الروايـة، فاضطربـت، لكنهـا قالت: أنا مُسـتعدَّة لمواجهة الشـاهد. وحـدَّد ضابـط التحقيق يوم الأحـد القادم موعدًا للجلسـة التالية... تحياتي».

مـا إن دخلنـا إلـى منزلنا، حتـى دلفت «مريـم» إلى غرفـة نومنا، واسـتلقت على السـرير لتغُطَّ في نومٍ عميقٍ هذه المرَّة، جلستُ إلى جوارها أتأمل وجهها المشع بضوء القمر وقد تغيرت بعض ملامحه، شـفتاها كبرتا، خصوصًا السُّفلى منهما والتي أخذت تتهدَّل، نظرت إلـى بطنها الذي أخـذ بالبروز، كانـت طريقة نومهـا الجانبية توحي بتوخيهـا الحـذر لكيلا تؤثر في وضعية الجنيـن داخل رحمها، قلت لنفسي: «جميلة هذه المرأة الحامل..».

طبعـتُ قبلة على جبينها، وتركتها تنام هانئة لأنصرف إلى متابعة مجريـات التحقيـق مـع «نهى»، فاتصلـتُ بالمحامي، لكنـه لم يرد، إلا أن «وفـاء» اتصلت بي، ودخلت معي في حديث التفاصيل حول كل ما جرى في الجلسة، وبعد نصف ساعة، عاود المحامي الاتصال بـي، وأخبرني بما جرى أيضًا، وطلب منـي الذهاب إلى «أبو نادية»

كونه الشـاهد الوحيد في القضية، وذلك لإقناعه بضرورة الحضور، ونصحني بإعطائه مبلغًا من المال كإكراميـة ومصروف طريق حتى يأتـي في الموعـد المحدَّد للجلسـة الثانية، وطلب منـي إخباره بأنه سيحصل على مبلغٍ آخر من المحامي يوم الجلسة كهدية من رئيس اتحاد الأدباء..

لـم تعجبنـي كثيرًا هذه الطريقة في التعامل مـع «أبو نادية» وكأننا نقـدم له رشـوة، بينما هو رجـل طيب النوايا، خصوصًـا أنه قبلَ مني مبلـغ المـال الذي أعطيته له في لقائي السـابق علـى مضضٍ. ولكن لا بأس، فالأمور تسير بحسب ما نريد نحن أحبَّاء المرحوم «مرهون الشاكر».

وجدتهـا فرصة اسـتغراق «مريـم» في نوم معمَّـق أن أعمل على تنظيـف الحديقة، فمضيت لأحرق سـاعة كاملة من الوقت، وبعدها دخلـت إلى المطبخ لشـطف أيـة صحون مغبـرة، وتنظيـف أرضية المطبـخ، ومـن ثم دلفـت نحو الحمَّـام للبحـث عن أيِّ ثيـابٍ غير مغسـولةٍ حتـى أتيـتُ عليها كلهـا لأنشـرها تاليًا فـي الحديقة تحت لواهب أشعة الشمس.

فـي تلك السـاعات، وجدتُ نفسـي زوجًـا مثاليًّا يتحمـل أعباء مسـؤولية أن تكون زوجته حاملًا حتى غربت شـمس النهار متوارية خلـف المنـازل المجـاورة ليأتـي دوري وأغسـل عن جسـدي كل التعرُّقات بالاستحمام الذي كنت ضيفه لنصف ساعة.

عندما انتهيتُ من احتفاء الماء بجسـدي، دلفت إلى صالة الدار، فسمعت «مريم» تناديني بصوتٍ خاملٍ: «سعيد.. سعيد..»، ولم أكن أرتدي ملابسـي الداخلية بعدُ، كانت المنشفة البنفسجية اللون تلف نصف جسـدي، فدخلت إلى الحجرة، رأيت «مريم» مسـتلقية على ظهرهـا، لكنها سـرعان ما أومأت لي بالجلوس على حافة السـرير، مسكت يدي بحنوٍّ، لمست الدفء في كفيها، سحبتني إلى صدرها، في تلك اللحظة الوامضـة بالرغبة، أخذ خيالي الخامل لابتعاده عن دفء أنثاي فترة مضت يستيقظ من سُـباته معلنًا صبابته الأسطورية ورغبته بتفكيك هجراني، وتأكيد استعداده لأول مداهمة غرامية بعد تلك الكرور العشـقية الهائجـة التي جعلت بطن «مريـوم» منفوخًا، فنحَّت المنشـفة الحمراء المبتلة جانبًا، وقالت: «أنا سألتُ أم محمد صديقة أم مرهون عن ...».

- عن ماذا؟

ضحكت بانتشـاءٍ، وضمّت رأسـي إلى نهديها بلمسـة حياء غير معهـودة، وقالـت: «إن أم محمـد أخبرتني بأنه لا يجـوز للمرأة منع الرجل من...»، فسألتها برفق:

- من ماذا يا روحي؟

- انظر إلى نهديَّ.. ما عادا كما كانا قبل الحبل؟

- أكيد يا عمري، لا بُدَّ لهما من أن يكبرا، لكنهما الآن أكثر خصبًا ونضارة من ذي قبل، ووعدًا مني يا روحي، ومهما كبر نهداكِ، فلن يسرقهما مني وليُّ عهدنا القادم، لقد نذرتُ شفتي لهما أبد الدهر، فهما وسادتَي الملائكيتان، وملاذ حنيني إليك، ومرتعي في لهفي لك، و...

قلت ذلك، وشفتاي تلتهمان برفق نهديها وهما يضوعان شوقًا لشفتيَّ حتى روَّضت جسدها بتؤدة، وبما لا يؤثر في حمل رحمها؛ ليرحل جسدانا الساخنان إلى بعضهما، وكان ظلام الليل يحرس قيامتنا الوردية، ويصلي لأجل عرسنا المتجدِّد حتى توارى بفجر صبحٍ جديدٍ.

# 33

عندمـا وضعت قـدح وإبريق الشـاي أمامي، مجالسًـا حديقتي، غرقت في دوَّامة سـؤالٍ عمَّا جرى ليل أمس، سـؤال الرغبة الأنثوية العارمـة التي بـدت عليها «مريم»، قـد أكون مخطئًا بأن النسـاء، في أثناء حملهن، لا يسجلن رغبة جنسية شبقية مع أزواجهن، فإحساس المرأة بالحمل، وكذلك عيش لحظته الوجودية، غالبًا ما يبعدانها عن ممارسـة الحب، بل حتى عن مجرَّد التطلُّع الشـبقي لقيامته.. لأول مـرَّة في حياتي، ومنذ تزوجت «مريم»، وجدتها تعض شـفتَي بقوةٍ، وكذلك ثديي الأيسر الذي كان الأقرب إلى فمها الوردي الشفاه..

«هـل هي رغبة شـبقية خالصـة أم محضة من أجل مجـرَّد الرغبة أم أن هنـاك بواعـث أخرى؟ هل كان النسـوة، صديقـات أم مرهون مثل أم محمد التي ذكرتها مريم أمس أثناء قيامة شـبقنا الاسـتثنائي، قد قصصن عليها حكايات نسـاء أخريات لكي تشـعر مريم بالحنين إلـى فحولتـي أم تريد التأكُّد من حبـي لها؟ أم تريـد اختبار صلابتي الجنسية؟ أم تراها تشعر بحرماني من ممارسة الجنس معها وقررت تسـليتي إشـفاقًا ورحمة بـي؟ لا أدري! قد تكون مجـرَّد نزوة عابرة

اجتاحتهـا؟ أو ربمـا أصبحت الضغـوط المحيطة بهـا تجعلها تفكر بخرابٍ محتملٍ يحصـل بيننا أو الخراب الذي يمكن أن ترميه علينا أقدار الحياة التي نعيشها في بلدنا التعيس؟ لا أدري؟ كانت طريقتها في ضم رأسـي إلى صدرهـا غريبة، كانت أكثر حميميـة هذه المرَّة، ربما لا تريد أن تفقدني كما فقدت آلاف النسوة أزواجهن وأبناءهن وإخوتهـن في وطننا عبر الموت بالمفخخـات والعبوات والأحزمة الناسـفة، وغير ذلك من طرق الموت المجانية؟». مجرَّد تساؤلات حدَّثت بها روحي الهائمة..

سـمعت صوتها يناديني: «سعيد.. سـعيد..»، التفتُّ إلى الوراء، كانـت واقفة وهي ترتدي ثوبها الشـفاف عند عتبة الباب، قالت لي: «تعالَ»..

دخلـت إلـى الصالـة، طبعـت قبلـة علـى جبينهـا، ضمَّتنـي إلى صدرهـا، وقالـت لي: «تعـالَ معي إلـى الحمَّام، أريد أن تغسـل لي جسمي، أن نستحم معًا».

قالت ذلـك ورائحة النشـوة الرهيفة عالقة في صوتها الوسـنان، طبعتُ علـى خديها وعينيها قبلًا متتالية، وقلت لها: «اسـبقيني أنتِ حتى أجلب ملابسنا..».

تذكَّرت أننا، وعندما كنَّا في شهر العسل، كثيرًا ما استحممنا معًا، هل تذكر؟ كنا نمضي سـاعات وديعة والمـاء الزلال يجمعنا احتفاءً بنا كعاشقَين عطشين للحياة..

عندمـا انتهينـا من اسـتحمامنا، بدت «مريم» أكثر هـدوءًا، وأكثر امتنانًـا لـي، أردتُ الدخـول إلـى المطبخ لكـي أعدَّ فطورهـا لكنها سبقتني إلى ذلك قائلة:

- دعه لي.. لكَ فقط أن تجلس خارج الصالة.

عندمـا جلسـنا فـي الحديقـة، حديقـة منزلنـا، كانت الابتسـامة الملغزة ترسم بهجتها على فم «مريم» وهي ترمق شفتي قائلة:

- شفتك متورمة.. أنا جعلتها هكذا، أليس كذلك؟

ثم ابتسمت، وقالت بدلالٍ:

- يمكن أن تناديني بالمجنونة، والجنون فنون؛ لذلك أعتذر منك يا «سعيد»، لا أعرف ما جرى لي خلال اليومين السابقين، خصوصًا أمس، كل شيء دار في رأسي كان غامضًا. قلت مع نفسي: «سعيد» وحده يمنحني الوضوح في حياتي، ويحطِّم أوهامي، ويقضي على شـعوري بالخـوف من المجهول، أعتذر منك يا «سـعيد»، بدوت امرأة باطشة معك ليل أمس، كنتُ خائفة من أنَّك، وعندما تطارح همس رغباتي، قد تخنق الجنين، لكن الأمر مضى بسلاسـة، رغم أنـك كنتَ عاصفًا، وأعذرك، يا سـيدي ونور عمـري، بأنك كنتَ محرومًا من أشيائي التي تحبُّها، ولكن بعد الولادة، سأعوضك ما حُرمت منه في فترة الحمل، هذا وعد من حبيبتك «مريوم».

وهي تتكلَّم، كانت تتلذَّذ بأي لقمة تضعها في فمها، تتذوَّق الشاي بعد كل رشفة من كأسه بلسانها الناعم، كل شيءٍ بدا عليها مختلفًا، حتى بلاغة قولها بدت مختلفة، يبدو أن حمل المرأة يفتح خيالها على عوالم جديدة، والحمد لله لم أُخيِّب أملها في كل شيءٍ، سواء خلال ليل أمس أم في هذا الصباح.

ما هو مهم، أن «مريم» تشعر الآن بالارتياح، فوجهها صار مضاءً بالفرح، حتى مفاتن جسدها تقرأ قصيدة حضورها الملائكي، الفجوة بين نهديها مطلقة نهرها لضوء الشمس الذي اخترق أوراق العنب المتهدِّل في فضاء الحديقة وحطَّ رحاله على بضاضتها الوردية، وقميصها الأبيض أضحى موسيقى حالمة، وشعرها الرطب بدا تحت ضوء النهار عاطرًا برائحة الياسمين، وأصابعها التي تمررها برشاقة على بطنها المنفوخ، بين لحظة وأخرى، اطمئنانًا على جنينها، تكشف عن شعورها الدافق بأمومة مبكِّرة، وكأنها تقول: «ها أنا، سيصبح لي طفل يناغيني: ماما.. ماما».

فكرت بالحديث عن موضوع رواية «مرهون» معها، فإذا بها تفاجئني بسؤالها عن الرواية قائلة:

- «سعيد»، هل قرأت فصول رواية «مرهون» كاملة، أقصد غير المفقودة منها؟

- نعم، قرأت الفصلين الثالث والرابع، فوجدت العجب، وشعرت أنني بحاجة إليكِ.

- كيف؟

- أريد منكِ قراءة بعض الفقرات في هذين الفصلين بالذات، أريدكِ، وأنتِ امرأة، أن تفسري لي سلوك «سُهى» في الرواية كما صوره «مرهون» كناصٍّ أو مؤلِّفٍ لروايته.

- هل يستحق الأمر هذا الاهتمام؟

- نعم، فأنتِ، ومنذ أيام الجامعة، أحرقتِ كثيرًا من الوقت في قراءة روايات طويلة، وروايات قصيرة أو ما تسمى بـ «Novella»، وكذلك قرأتِ الكثير من القصص القصيرة، ووقفتِ فيها عند البُعد النَّفسي، وهذا ما أحتاجه منكِ يا «مريم».

- هل تريد أن تنصف «سُهى» في الرواية أم تريد نسفها؟

- لا هذا ولا ذاك، فقط أريد أن أفهم، خصوصًا أن التحقيق مع «نهى» بدأ في جلسته الأولى، ولو اعترفت بأنها سرقت الفصول المفقودة، سنكون قد توفقنا في حل المشكلة لندفع الرواية إلى النشر.

- هل تفعلها «نهى»؟

- ولِمَ لا؟

- أنـا أشـك، ولكن يا روحي وحبيبي، ويا والـد ابني القادم، أعطني الفقـرات التـي تريد منـي قراءتها، ولـكَ أن تتركني وحـدي أربع ساعات فقط، وعندما تعود سنجلس للحوار بشأنها.

- لا بـأس، هـي لـكِ، أمـا أنـا فسـأذهب إلى السـوق لشـراء بعض الحاجات، ومن ثم أذهب إلى المقهى للقاء بعض الأصدقاء..

- اتفقنا..

أعطيتهـا الأوراق كلَّها، وأخبرتها بأن تركِّـز قراءتها في الفِقرات التـي علَّمت عليها بخطٍّ أحمر، لكنها خاتلتني ومسـكت يديَّ بحنوٍّ وبأنوثـة غامـرة لتطبع قبلة عليهمـا تباعًا، وقبلة أخـرى خفيفة الظل على شـفتي المتورمتين مـن دون أن تنظر في عينَـي، ومن ثم دلفت غنجـة إلى الصالـة بخطوات مفعمـة الصبا وهي تمـرِّر أصابع كفها اليسرى على بطنها بدلال يُضيء نشوة مرحة..

«يا للمرأة الحامِل!»، هكذا قلت لنفسي.

# 34

أمضيت ساعاتٍ في المقهى برفقة أصدقاء من سكنة حينا، كانت كل أحاديثنا تدور حول ما يجري في العاصمة من أحداث عنف دموية، وموت مُبرمج للإنسان في كل مدن الوطن، ومشكلات ما تركه كل ذلك من آثار فادحة في النساء الأرامل والأطفال اليتامى في ظل دولة ضعيفة، ومُحتلٍّ أمريكي مخادعٍ، ودول جوارٍ تريد الوطن ضعيفًا مهزوم الجبين، ممزَّق الذات.

كان اليأس سيد الشعور العام لدى كل المتحدِّثين، لاسيما أننا، وفي أثناء جلستنا، سمعنا عن دوي رصاص متقاذف في ظل كلامنا عن بوادر ونُذُر حرب أهلية مذهبية تلوح في الأفق..

كان ثلاثة من الأصدقاء الجالسين في المقهى تركوا أماكن عملهم في مناطق أخرى، أغلقوا محالهم وورشهم التي يملكونها هناك، وصاروا يبحثون عن محال بديلة في الحي الذي يعيشون فيه مع أطفالهم وزوجاتهم حتى لا يتعرَّضون إلى الخطف أو الاغتيال من جانب عصابات منتشرة في كل مكان بالعاصمة، كان بعض

الجالسين يفكّر في تقسيم بعض البيوت إلى محالّ لكي يحوّلوا الحي من سكني إلى تجاري سكني، وهذا ما صار بالفعل في مناطق أخرى داخل العاصمة حتى صارت ظاهرة آخذة في التطور نحو الأسوأ.

أخذت الحرب والتغيير السياسي الذي جرى في بلادنا تؤثران في بنية المجتمع المهنية والسكنية والأخلاقية، فكل شيءٍ أصبح يمضي بطريقة جديدة، جميع الجالسين في المقهى يلاحظون ظاهرة العزلة التي يعيشها الناس في مناطقهم داخل العاصمة، لا أحد يزور قريبًا في مكانٍ يبعد أكثر من ثلاثة كيلو مترات، وحتى هذا غير ممكن في أحيانٍ عدَّة، كما أن السفر إلى المحافظات بات محفوفًا بالمغامرة والغباء أحيانًا، عمِّي «أبو مريم» حدَّثني عندما جاءني معزيًا أم «مرهون» عن جثث متعفنة كانت مهجورة عند حواف الطريق العام بين بغداد والحلة، كانت مهجورة ولا أحد يستطيع الوصول إليها لأنها هي الأخرى مفخخة.

بدا الحزن مهيمنًا على الجالسين، كان الأفضل لنا فض الجلسة، والعودة إلى منازلنا، فكل الأحاديث تبعث فينا الهموم على نحوٍ مؤذٍ ومؤلمٍ ومخيفٍ..

افترقنا، كلٌّ مضى إلى غايته وهو يحبس ألف قهر وقهر يعتصر كيانه.

# 35

وبينما كنت عائدًا إلـى المنزل، اتصلت «مريم»، وكالعادة كانت تريـد أن تعـرف أين أنا، ومـاذا أفعل؟ أخبرتها بأننـي في طريقي إلى المنزل، طلبت مني شراء خبز وبعض الفاكهة، سألتها فيما إذا كانت قـرأت فصـل الرواية، فقالت: «نعم، لا بُدَّ أن تأتي مسـرعًا للحديث عن هذا الموضوع».

عندمـا دخلت إلى المنـزل، كانت رائحة الطعـام المطبوخ تملأ فضاء الصالة، وكانت معدتي قد مُلئت بشاي مقهى «أبو كريم» قليل الطعم.

جلسنا معًا على مائدة غداء أسطورية هذه المرَّة، يبدو أن ما جرى ليل أمس قد فتح شـهية «مريم» في الطبخ الملكي، كانت تحتفي بي في كل لحظة، إلا أنني سألتها:

- ما هو رأيكِ فيما قرأتِ؟

- موضوع «سُـهى» فـي الرواية أمر محير جـدًّا، حاولت في قراءتي عـدم الربط بين «سُـهى» فـي الرواية و«نُهى» في حيـاة «مرهون»،

سأتركُ هذا الربط لكَ، وإن كنت سأشير إليه قليلًا، حتى أفهم النَّص بوصفه عملًا متخيَّلًا.

- هذا جميل، وماذا وجدتِ؟

- أتفق معك في أن «سُهى» التي جاءت إلى المنزل ليلًا وهي مخمورة، والعياذ بالله، كشفت عن بنية اللا وعي أو اللا شعور في داخلها، وتلاحظ في كلامها الذي تحدَّثت به إلى «رشيد»، في الرواية طبعًا، وجود بعض دلالات تخص عالم الأدب والإبداع واللغة؛ «السَّياب»، والفيلسوف أو الشاعر الفلسفوووس.. والتي لفظتها بلسانٍ ثقيلٍ لأنها مخمورة، وعبارات من مثل: حجر أمك، المومس العمياء، بينك وبينك، وغير ذلك، هي عبارات تكشف عن أن «سُهى» غير بعيدة عن عالم البطل «رشيد» وهو مثقف في الرواية، لكن «سُهى» أدلقت كل تلك التعابير بأسلوب السخرية، بمعنى أنها كانت تريد أن تسخر من عالم زوجها الذي يتشبَّث به، وهو عالم الأدب والثقافة، كانت تريد أن تُدينه من فمه، تُدينه بما له من أداة ووسيلة يخاطب بهما العالم من حوله، كانت تريد إثارة حنقه، وإشعال حرائق اغتياظه، وحتى مجرَّد ذكرها لرئيسنا الفار، كما ورد في النص، جاء بسخرية فظيعة، تخيَّل ذلك..

- هـذا تحليـل جميـل يـا «مريـم»، ولكنها كانت تسـخر مـن والدة «مرهون» أيضًا؟

- تلـك هي عقدة «سُـهى» فـي الرواية أو عقدة الكَنَّـة والعَمَّة، وهي عندمـا تسـتخدم عبارة «حجر أمـك» ربما كانت تريـد التعبير عن عقـدة كبيرة من عقد حياتها الزوجية، كانت تريد أن تقول لزوجها إنهـا تغار مـن والدته التي تحبه ويحبها، كان هـذا الحب المتبادل بين الأم والابن مشـكلة لدى «سُـهى»، كانت تريد من «رشيد» أن ينفرد بحبها هي فقط، كانت تريد انفراد قلبه بها دون غيرها.

- يا «مريـم»، قد يكون هذا التحليل ممكنًا، إلا أن «سُهى» في الرواية خرقـت المعتاد عندما تأخَّرت عن المجيء إلى المنزل، خصوصًا أن أحداث الرواية تجري في ظروف مكانية وزمانية صعبة يعيشها الوطن كما صورها المؤلِّف في روايته.

- هـذا صحيح، وهو يمثل شـكلًا من أشـكال التحـدي الذي كانت «سُهى» تستعجله مع زوجها، فنحن لا نعرف ماذا جرى في الفصل الثانـي من فصول الروايـة، لكننا نلاحظ أن الأحـداث تتوالى في ظل صراعٍ هائجٍ تعيشـه «سُـهى» في داخلها، ويبدو لي أنها كانت تريد إنهاء حياتها مع زوجها على نحوٍ مأسوي أو تراجيدي عندما لجأت إلى اسـتفزازه بالطريقـة التي صورها الفصـل الثالث.. أما

الخيانة، فذلك في غاية الشناعة، يبدو أن «سُهى» وصلت إلى مرحلة اليأس المطلق، وحقيقة يا «سعيد» أنا بدأت أرثى لحالة هذه المرأة التي تسمَّى «سُهى» في الرواية، أجد هزيمة كبرى في داخلها، وعندما تُهزم المرأة في داخلها، تصبح ضعيفة، وترى في الشر أحيانًا سبيلًا للخلاص حتى لو كانت نهايته كارثية.. كان ذهاب «سُهى» إلى الرذيلة طريقة منها للخلاص ليس من زوجها فقط، بل ومن سمعتها وشرفها ووجودها وأنوثتها وكرامة جسدها، أي أنها أخذت على عاتقها تدمير وجودها بالكامل.

- أليست هذه سادية متطرِّفة أو حالة مرضية يا «مريم»؟

- قد تكون، لكن نموذج «سُهى» تمادى كثيرًا، وكما صوَّرها الكاتب، أقصد «مرهون»، في تدمير الذات الأنثوية أكثر، وعلى نحوٍ فاضحٍ، فهي لم تكتفِ بعشيقٍ واحدٍ بل أكثر، والمصيبة هي جمعت على جسدها عهر النقيضين معًا لتذهب إلى أقصى خلاعة ممكنة.

- أنا وجدت يا «مريم» أن «سُهى»، ورغم أنها كانت سكرانة، تتحدَّث عن الوطن، والحقيقة كانت فكرة جميلة تلك التي ربطت فيها بين الجسد والوطن أو صيَّرت جسدها وطنًا يتناوب على إهانته ضابط الدورية والإرهابي معًا، وربما غيرهما، الله أعلم!

- أقول لك يا «سعيد»، إن الفِقرات التي علَّمت لي عليها بالخط الأحمر، تضم تسريدًا مهمًّا عن شخصية «سُهى» في الرواية، فالهزيمة لديها هي هزيمة وطن؛ الوطن الذي غلبته الحروب، والحصار الاقتصادي، وصور القتل اليومية في الشوارع، وصور الاغتصاب للنساء، بل وتحويل الجسد الأنثوي إلى جسد مُفخخ بالقنابل القاتلة، كل هذه الفظاعات جعلت من «سُهى» الرواية أنموذجًا للمرأة المهزومة في وطننا، جعلتها عُرضة لهزيمة كبرى بحيث صارت «سُهى» نفسها تقرأ جسدها كوطن أنثوي مشاع يمكن لأيٍّ من الناس العبث به؛ غزاة، قتلة، مفخخِّون، سماسرة، سرَّاق، مفسدون، عهَّار، مروجو فجور، مغتصبو فتيات وأطفال صغار، عابثون بالمال العام، وغير ذلك مما نعرفه جميعًا عن هذه النماذج البشرية المتوحشة التي طلعت علينا بهمجية من جحور الشر لتنقضَّ على براءتنا، وتحيلنا إلى هشيمٍ معدومٍ.

وأريدُ أن أضيف شيئًا آخر، إذا تلاحظ أن «سُهى» ذكرت رئيسنا الفار بسخرية، وأنت تعرف أن «سُهى» عاشت ريعان شبابها في الثمانينيات على وقع المدافع والصواريخ، وكانت تشاهد جثث الشهداء المحمولة على سيارات الأجرة، وانقطاع الطاقة الكهربائية، ومشكلات أخرى كثيرة كانت نتاجًا لتلك الحرب المدمِّرة، كما أنها عاشت ليس بعيدًا عن وقع طبول الحرب

الكونيـة القـذرة التي مـرَّت على بلادنـا عـام 1991، والأفظع من ذلك، أنها عاشـت سنوات الحصـار والجـوع، واهتـراء الحياة، وفساد التعليم، وشيوع الرشوة، ومن ثـم جاءت الحرب الأمريكية الأخيرة لتضرم النار في حطامنا.. «سُهى» نتاج لكل تلك الظروف المبغوضة..

- كأنّكِ يا «مريم» تريدين القول إن «سُهى» كانت ضحية، ولكن إذا كانت ضحية فلماذا ابتدعت كل هذه القصَّة؟

- إذا كنَّا نريد قراءة المتخيَّل في ضوء واقع موضوعي ما، فأقول لك نعم، كانت «سُـهى» ضحية بحسـب المـكان والزمان والأحداث المسـرودة في الرواية، والمشـكلة أننا لا نملك الفصل الثاني من فصولها لكي نتابع تطوُّر الأحداث في مسـاراتها السـردية، ونقف عند بداياتها، فـ «النَّص مقطوع»، كما كان يقول أحد أسـاتذتنا في الجامعة الذي درَّسنا تحليل النصوص الأدبية، هل تذكره؟

- نعم أذكره.

- أمـا موضوع القصَّـة، فأقول لك نعـم، كانت «سُـهى» تحتاج إلى قصَّة من هـذا النوع، قصَّة الهروب من الحيـاة الزوجية والارتماء فـي أحضان أناس آخرين للأسـف كانـوا نماذج سـيئة.. المرأةُ يا «سـعيد» لا تجد نفسها إلا باختلاق القصص والحكايات لتحقيق غاياتهـا وأحيانًـا للتعبير عن ذاتها.. ولو قـرأت تاريخ الصراع بين

العمَّة والكَنَّة ستجد كل واحدة منهما تختلق القصص والحكايات للسيطرة على الأخرى أو للدفاع عن نواياها، وتراني لا أبالغ عندما أقول لك يا «سعيد» إن إحساس المرأة بوجودها لا يتضح أحيانًا إلا بقصَّةٍ وبحكايةٍ، وللأسف «سُهى» في الرواية، و«نهى» في الواقع، كلتاهما، اختارتا أسوأ أشكال القصص؛ قصص اللجوء إلى الرذيلة في إيذاء الذات والغير بالعنف الجسدي والدموي لإنهاء حياتهما.. من ناحية أخرى، أنا أعتقد أن لـ «سُهى» في الرواية، كما لـ «نهى» في الواقع، وجعهما الخاص بهما الذي انحنيتا له كما انحنى له «رشيد» في الرواية و«مرهون» في الواقع، أردتُ أن أترك ذلك لك لتحلل العلاقة بين الواقع والمتخيَّل، لكنني أُضيف بأن «سُهى» حوَّلت الخصب الذي هو شأن المرأة ككائن يجدِّد الحياة والوجود إلى جدب أعمى لتقترن التضحية بالتشظية الهالكة، وتلك خسارة كبيرة.

- لا بأس، هذا تحليل عميق.. أراكِ اليوم قارئة محترفة لهذين النَّصين، أقترح عليكِ أن تكتبي بعض المقالات النقدية في الصحف والمجلات، ولكن لا بُدَّ من الربط بين «سُهى» في الرواية، و«نهى» في حياة «مرهون».

- هذا ما أتركه لك يا «سعيد»، أيها القارئ المحترف، لا سيما وأنت الأقرب إلى «مرهون» فهو صديق عمرك، ولك، وكما ذكرتُ

سابقًا، أن تقارب بين واقع النص المتخيَّل كما عاشه «رشيد» مع «سُهى»، وواقع نص الحياة كما عاشه «مرهون» مع «نهى».

- بوركتِ أيتها القارئة المحترفة.. ولكن أريد أن أسألكِ «مريوم» عن شيءٍ يبدو مهمًّا لي؛ ففي خلال وجودك مع أم «مرهون»، هل حصلتِ على معلومات عن علاقة «مرهون» بـ«نهى» أو العكس؟

- كثيرة هي المعلومات، منها أن «نهى» لم تكن تحترم «مرهون» ولا والدته، كانت تعاملهما بلا مبالاة، بل وبسخريةٍ أيضًا، كانت «نهى» تقذعهما معًا بطريقة قبيحة من دون أن تخز حياءها لكي يستيقظ، ولو لمرَّة واحدة، تقول أم «مرهون»: إن «نهى» كانت امرأة غريبة الأطوار، حامضة الطينة، لا تحترم أحدًا، حتى والدتها لا تحترمها، لا تمدُّ يدها في تنظيف البيت أو الطبخ، غالبًا ما تترك «مرهون» ينام وحيدًا.. وفي بداية زواجهما كان «مرهون» يضغط على «نهى» لكي تقرأ الكتب والمجلات الثقافية، كانت في البداية تقرأ لكن ذلك لم يستمر طويلًا، كانت تتناقش أحيانًا مع «مرهون»، لكنها تطرح ذلك بسخرية في غالب الأمر، وكانت تتناول أدوية متنوِّعة، منها حبوب مهدِّئة، وتردِّد دائمًا مقولتها: متى يأتي الفرج؟، ولم أكُن أعرف مَنْ هو؟ وما هو الفرج الذي تنتظره؟ فهل هناك فرج للمرأة أكثر من أن تتزوج وتعيش تحت خيمة رجل يُطعمها ويحفظ شرفها؟

تنهـدت «مريم» وكأنها تستعيد مـرارة أم «مرهون» وهي تحكي لها، ثم واصلت قائلة:

- كان «مرهـون» يريـد منها طفـلًا، وكانت تدَّعي أنها مـن العواقر، لكن ذلك غير صحيح بحسب قول والدة المرحوم، والتي عملت المستحيل من أجل إقناعها لكي تحبل من ولدها، وكانت تعدها فـي بداية الأمر خيرًا وتخلـف ذلك فعلًا في مرحلـة تالية. «نُهى» امرأة مخلوقة لكي تكون ساخطة على كل شـيء، ولـم تكن تفكر فـي التصالح مع الحيـاة والناس، ومع زوجها، ومع نفسـها حتى. وبين الحين والآخر، كانت والدة «مرهون» تسـمع صراخًا بينهما فـي غرفة نومهمـا ليلًا، بـل وفي كل ليلـة يدخلان إليها، وسـألته والدتـه، ولأكثـر من مـرَّة، عن سـبب العـراك بينهما فـكان يقول لهـا: إن «نهى» لا تريـد أن تنام إلى جانبي، بمعنـى أنها لا تريد أن يضاجعها أو يمارس الجنس معها.. وواضح أنها لا تريد أن تحبل منـه، حتى إنني سـألت أم «مرهون» فيمـا إذا كان ولدها يعاني من مرضٍ ما في جهازه العضوي، فأخبرتني نفيًا.

صمتت «مريم» قليلًا وكأنها تتذكر شيئًا كادت تنساه، ثم قالت:

- كانت أم «مرهون» تقول لي: إن «نهى» تجري اتصالات كثيرة عبر موبايلها، في الصباح وفي المسـاء وفي الليل، ليس مع أمها طبعًا، إنمـا مع آخريـن وأغلبهم من الرجـال.. بل وأوضحـت لي وهي

دامعة العينين أن بعض النساء ممن يجاورنها سكنًا أخبرنها بأن كنتها «نهى» تركب في سيارة وتعود لتنزل من أخرى بعد ساعتين أو أكثر، وفي هذا الكلام الذي كان يجرح والدة المرحوم معنى وألف معنى، واللبيب تكفيه الإشارة.

- ما هو؟

- يبدو لي، وليسامحني البارئ على ما أقول، أن «نهى» كانت مَذِرَة وفاسدة أخلاقيًّا قبل زواجها من «مرهون»، ربي سامحني على هذا الكلام.. وبعد زواجها منه مضت في الطريق نفسه، وإذا ربطتَ يا «سعيد» استنتاجي هذا مع كلام «محمود»، جار بيت أهل «نهى»، الذي أخبرك به سابقًا، فيمكن أن تتضح لك الصورة أكثر وأكثر.. لكن هذا لا يعنينا أبدًا يا «سعيد»؛ المهم عندك هو أن تجد فصلي الرواية المفقودين لتدفعها إلى الناشر كاملة، أما أنا فعليَّ الحفاظ على حياة أم «مرهون» وخدمتها، وأرجوك أن تدع الماضي للماضي.. لقد فقدتَ صديق عمرك، بل فقدت أعز الأصدقاء على نفسك، أخذه الموت منك، ومن والدته، ومن «نهى»، ومن عالم الإبداع برمته.. كان «مرهون» روحًا ضائعة، كما قال «ماريو بارجاس يوسا» في إحدى رواياته، وعندما رحل «مرهون» إلى غيابه، أصبحت روحه حائرة أكثر، وعلينا التخفيف من حيرته تلك لكي يتكرى في قبره مرتاحًا.

- هذه فكرة جيدة يا «مريوم»، أنتِ امرأة رائعة، هل تريدين الذهاب إلى بيت أم «مرهون»؟

- نعم، ولكن لا بُدَّ أن أشكرك يا «سعيد» على ليل أمس، كنتَ رائعًا، لقد منحتني متعة آسرة.. وسامحني أنني تسببت في تورم شفتيك.. كنت متطرِّفة في شبقي معك.. ولكن من دون مفخخات، ولا عبوات ناسفة.. كانت حرائقي ملتهبة إلى أبعد مما تتصوَّر.. ولكنني أعدك يا «سعيد»، بأنني، وبُعيد ولادتي لابني، سأعامل شفتيك الوفيتين برفق وحنان بل وأمومة حتى، أما مع ما عداهما، فسأكون أكثر جنونًا.. هذا وعد، ووعد الحُر دين كما يُقال..

- مثل ماذا؟

- أقصد الأشياء الأخرى..

- مثل ماذا؟ أوضحي.

- لا تكن طماعًا يا فحلي الوديع..

# 36

عندمـا أوصلت «مريم» إلـى بيت أم «مرهون»، عدتُ إلى منزلي لأعيـش طقـوس وحدتـي والمسـاء قـد خيم علـى المـكان، لكنها «مريـم» عادت إلى ذاكرتـي مرَّة أخرى، لقد أدهشـتني زوجتي هذه عندمـا كانت الأفـكار التحليلية تتدفَّق بسلاسـة من لسـانها العذب وهي تتكلَّم عما قرأته في الرواية، وتحديدًا عن ملابسـات شخصية «سُـهى» فـي الرواية، هل تمتلـك «مريم» كل هـذه الإمكانية؟ أم أن ليلة الغرام الفائتة، التي أمضيناها معًا، هي التي فتحت قريحتها على تحليل شـخصية «سُـهى» في الروايـة؟ أم أن الميـول الأنثوية لعبت دورها في تحليل شخصية هذه الـ «سهى»؟

أسـئلة عديـدة باتت تضغـط على تفكيـري وأنا أجالـس حديقة منزلنـا مـن دون ضـوء حيث الظلام سـيد اللحظة بانتظـار رحمة أن تعود الطاقة الكهربائية مرَّة أخرى، يا لبؤس حياتنا!

لا أريد التمسُّـك بفكرة الضحية، أو بالسـؤال: مَنْ هو الضحية؟ «مرهـون» أم «نهـى»؟ فهـذا شـأن القراء الذيـن سـيُطالعون الرواية

في حال نشرها، و«مريم» قارئة من القراء الذين لهم حرية تأويل شخصية «سُهى» في الرواية كما يحلو لهم، فذلك شأنهم.. مرتجاي هو الحصول على فصلي الرواية المفقودين أو المسروقين، ولا أدري بأية وسيلة أضغط على «نهى» لكي تعيد لي الفصلين، الثاني والخامس، هل أرسل لها أحد الأشخاص، امرأة أو رجلًا، لكي يقنعها بإعادة الفصلين؟

كلا، هذه المرأة متعجرفة، ولا يمكن التعامل معها برفق، ولكن هل المال يمكن أن يقنعها؟ من أين لي المال؟ ولا حتى أيَّة مؤسسة مستعدة لدفع مبلغ كرشوة لزوجة روائي سرقت فصلين من روايته، يا لسخرية الأقدار! هل أقترح على وزارة الثقافة شراء مكتبة «مرهون» ودفع المبلغ لـ «نهى» كي تعيد الفصلين؟

كلا، كلا، قد تفعلها الوزارة لشراء مكتبة «مرهون»، ولكن لا أريدُ أن يذهب المبلغ إلى «نهى»، أريده لوالدته المسكينة، فهي أولى به.

هذه مجرَّد فكرة، رغم أن «نهى» إذا عرفت شيئًا عن هذا الموضوع ستطالب بالمبلغ كونها أرملة «مرهون»، الموضوع شائك جدًّا، ولكن لا داعي لكل هذه المتاهة، فالأمر سيتم حسمه في القضاء، وذلك أفضل للجميع..

لمـع فـي ذهني أحد الأسئلة: هل تسـلَّم «أبـو ناديـة» بلاغًا من ضابط التحقيق للمثول كشاهد؟ «يا للهول! من الضروري الاتصال بالمحامي عمَّار القاضي». قلتُ ذلك.

اتصلت به، لكنه لم يرد..

ما زال الظلام قابضًا على اللحظة برمتها، هذه مشـكلة لا مهرب لـي مـن معالجتهـا، لا بُـدَّ من شـراء الكهربـاء من أصحـاب الطاقة الكهربائية الأهلية.. ذلك يتطلَّب مالًا، ولِمَ لا؟

لا مندوحـة لي عن تخصيص بعـض المال من راتبي، ولا بُدَّ من التخلـي عـن مصروفات معينـة لهذا الغـرض، لن أشـتري كتبًا بعد الآن! بل لا مناص من تقليل عدد السـجائر الذي أنفث فيه همي من الصبـاح حتى المسـاء، خصوصًا أننـي بانتظار طفل طـري العود لا يجب أن يشـم رائحة سـجائر في المنزل، تلك مشكلة.. ولا مفر لي أيضًا من البحث عن أيِّ فكرة من شـأنها تقليل المصروفات اليومية لكي أتمكَّن من دفع المال لشراء الكهرباء..

غـدت حياتنـا أكثـر تعقيدًا مـن ذي قبـل.. غدونا فريسـة لأقدار جديدة علينا..

رنَّ هاتفي، كان المحامي، أخبرته عن موضوع «أبو نادية»، فقال لي: «نعم، كل شـيء جرى بحسـب الأصـول، وأبو ناديـة تم تبليغه

بموعد حضور الجلسة القادمة»، وأضاف: «فقط عليك يا سعيد أن تذهب إليه غدًا لكي يكون مستعدًّا نفسيًّا للموضوع حتى يحضر الجلسة».

شكرته، وكنت في الحقيقة لا أجد لديَّ الاستعداد النفسي الكافي لقطع مسافة طويلة حتى أصل إلى بيت «أبو نادية» وهو في أطراف العاصمة.

ولذلك، راودتني فكرة الاتصال به، لكنني لم أجد في هذه الفكرة قدرًا من اللياقة، لا أريدُ أن أجعل المحامي يشعر بأنني تململت من الموضوع، لا أريدُ إحباط حماسة الآخرين، لا بُدَّ من الذهاب إلى هناك مهما كان الأمر شاقًّا ومتعبًا..

في المساء، ووسط الظلام الدامس، بدا القمر المنير بهيَّ الصورة، كان الصمت سيدًا لولا سماع أصوات رصاص متقاذف من رشاشات ومسدسات القوات الأمريكية أو من المسلحين هنا وهناك، بعض أصوات الرصاص يبدو بعيدًا، وغيره كان الأقرب إلى مسمعي..

موجة حزن عارمة دهمت عموم كياني؛ فإلى متى تبقى مساءاتنا كئيبة؟ وإلى متى تبقى أيامنا غامة وحبلى بالموت المجاني؟

شعرت أن سريري هو الكائن الذي يمنحني ضوءًا حميمًا إذا ما ارتميت عليه نائمًا..

# 37

كانت رحلتي إلى بيت «أبو نادية» شاقة جدًّا، حرقت أربع ساعات ونصف الساعة حتى وصلت إليه، وأخبرته عن الموضوع، فوجدته مرحبًا به، بل وأبدى أسفه على ما جرى للمرحوم، وأكد لي يقينه من أن زوجة «مرهون» هي التي سرقت فصلي الرواية الضائعين، وأضاف قائلًا:

- خبرتي العملية في المستشفيات علَّمتني مَنْ هو الصادق في زيارة أحد المرضى ومَنْ هو المخادع..

وأضاف موضحًا:

- عندما جاءت تلك المرأة لم أجد شيئًا من الرحمة في عينيها، كان الشرر يقاذفهما، كانت مرتبكة من وجودي، وكانت تعتقد أن المبلغ الذي دسته بين أصابعي كافيًا لرشوتي أو إسكاتي أو تملُّصي من المسؤولية.. يا أستاذ «سعيد»، أنا الآن أكثر حزمًا وإصرارًا على الذهاب إلى مركز الشرطة للإدلاء بشهادتي حول هذا الموضوع لأنها لم تخدع زوجها المريض فقط وإنما

خدعتني أنا أيضًا، استغفلتني وضحكت على رجل عمره من عمر والدها، وأنا سأطالب بحقي عبْر القضاء؛ حقي في أن هذه المرأة استغفلتني وسرقت أوراقًا من مريضٍ كان يُعالج في غرفة أنا كنتُ أحد المسؤولين عنها.. عُد يا أستاذ «سعيد» إلى بيتك مرتاح الضمير، وغدًا سأكون هناك في الموعد المحدَّد.

لقد بعث كلام «أبو نادية» في نفسي الراحة والأمل، بل وأزال عني بعض قلقي وأنا في طريقي إلى بيته.. بدا رجلًا شجاعًا بكل معنى الكلمة، بات يشعر بالمهانة جرَّاء ما فعلت به «نهى» البغيضة، وكلامه الذي سمعته منه شدَّني أكثر لحضور جلسة التحقيق القادمة، لكن نصائح المحامي تجعلني مُجبرًا على الالتزام بها، أجلس في بيتي وأترقَّب من بُعد ما سوف يجري هناك، تلك هي الطريقة المثلى لكي أتجنَّب العنف المحتمل الذي يمكن أن يكيلاه لي ضابط الدورية والإرهابي، وربما غيرهما من عشاق السيدة اللعينة، وكذلك أتجنَّب نواياها الإجرامية..

وصلتُ إلى منزلي من دون أي شعور بالتعب، رغم أنني أمضيت ثلاث ساعات ونصف الساعة في طريق العودة..

# 38

في صباح يوم الأحد، صباح جلسة التحقيق، بدوت متحمسًا لسماع أخبار ما سيجري هناك، شحنت بطارية موبايلي جيدًا، نظرت إلى الساعة الحائطية في الصالة فكانت الثامنة بينما الجلسة في العاشرة..

ضممتُ فصول الرواية في ملفٍّ واحدٍ رغم شكِّي في أن «نهى» سيستيقظ ضميرها في لحظة مُشرقة ما وتجلب بقية الفصول معها إلى جلسة التحقيق..

اتصلتُ بـ «مريم»، أخبرتها باستعدادي لسماع أخبار الجلسة، لكنها خيبتني قائلة:

- لا تتفاءل يا «سعيد»، لا توجد مؤشرات على إرجاع «نهى» لفصول الرواية المفقودة، هذا إحساسي بالموضوع.

- أنتِ متشائمة جدًّا يا «مريوم».

- وأنتَ متفائل جدًّا يا حبيبي، «نهى» مجرمة حقيقية، امرأة موغلة في الإجرام، لقد تحصَّلتُ من أم «مرهون» على معلومات هائلة

عنها؛ لذلك، أرجوك يا «سعيد» لا تبدو متفائلًا كثيرًا هذه المرَّة، ولكن لديَّ إحساس بأن اليوم ستُحسم الأمور..

- طيب، ننتظر ما سيكون، وأتصل بكِ لاحقًا، تحياتي إلى أم «مرهون»..

عدتُ إلى أحزاني مرَّة أخرى..

«دائمًا، ومن جديد، تعود الكآبة..»، هذا ما قاله «جورج تراكل»..

أحيانًا أكره واقعية «مريم» فيما تقول وتفكر، ولكن ما هي سوى ساعتين ونسمع النتائج.. بعثت رسالة إلى المحامي حول مصير مكتبة «مرهون»، وفيما إذا كانت «نهى» ستوافق على إهدائها إلى مكتبة الاتحاد العام للأدباء أم لا؟

بعد عشر دقائق، كتب لي رسالة جاء فيها: «فكرة جيدة، ولكنها تتوقَّف على ما سيجري في جلسة اليوم.. شكرًا لك أخ سعيد».

مضى قلقي باتجاهات عدَّة، بدا كلام «مريم» ممزقًا لآمالي، لكن رسالة المحامي بعثت في نفسي السرور، اتصلتُ بالصحافية «وفاء السامي» لأتأكد من حضورها، وكذلك الصحافي الذي يعمل في جريدة «الصباح»، لكن رسالة جاءتني من «حسن المزهون» كتب فيها أنه في بغداد، وهو متوجِّه إلى مركز الشرطة لحضور

التحقيق. وقال لي أيضًا إنه، وبعد الانتهاء من الجلسة، سيأتي إلى بيتي كضيفٍ.

كانت فكرة جميلة أن ألتقي «حسن المزهون» في مثل هذا اليوم المتوتر، خصوصًا أن ضيفي أبدى حماسًا لزيارتي..

حرقتُ ما تبقى من الوقت في إعداد الشاي، بدأت أشعر بأنني سأكون الطاووس الأسطوري لو حصلتُ على فصلي الرواية من هذه الزوجة الماكرة..

طوبى لك يا «سعيد» لو نُشرت الرواية كاملة..

بدأت أتخيَّل ما ستنشره صحف الغد:

«القضاء يستعيد فصلي رواية الشاكر المفقودين»

«أرملة تعترف بأنها سرقت فصلين من آخر رواية كتبها زوجها قبل رحيله».

«شاهد وحيد ينقذ رواية من الضياع»

سيقول الناس: «إن القضاء في بلادنا عظيم الشأن.. وإنه ما ضاع حق وراءه مُطالب».

ربما سيفجِّر الإرهابي مركز الشرطة الذي يجري فيه البحث الجنائي..

ولا أدري ما الذي يمكن أن يفعله ضابط الدورية في تلك الحالة؟

ربما يعتقل الإرهابي أو ربما الإرهابي يفجِّر نفسه بحزام ناسفٍ أمام الضابط ويقتله أو قد يبقيان كأصدقاء ليتقاسما جسداً السيدة «سُهى» / «نهى» باعتباره وطنهما البديل بعد ضياع الوطن/ الوطن..

لا أعلم، فكل التوقُّعات ممكنة في بلد تقهقرت حياته إلى قرون مظلمة على نحو سريالي..

أسمع صوت انفجار هائل يرُج العاصمة على بكرة أبيها..

توجَّهت نحو الصالة، أبحث عن مذياعي صغير الحجم أو «المذياع الدودة» كما تسميه زوجتي «مريم».. ما زال الوقت دون العاشرة، سأعرف حتمًا أين وقع الانفجار الإجرامي، وسأعرف عدد القتلى والجرحى، وغير ذلك من الخسائر غير البشرية.

جاءت نشرة العاشرة صباحًا من دون أي خبر عن الانفجار، اتصلت بـ «مريم»، قالت لي: «بحسب أقوال الناس فإن الانفجار وقع في أحد شوارع منطقة الكرادة الشرقية، أما كم هو عدد الموتى والجرحى فيمكن أن تقدِّره أنت».

تذكرت أنني يوم أمس بدأت أفكر في شراء الطاقة الكهربائية من صاحب المولِّدة الكهربائية الضخمة، فخرجت للذهاب إليه،

وعندمـا وصلـتُ إلـى محلـه الافتراضي، بـدأ الرجل القصيـر جدًّا بعـرض أسـعاره للأمبير الواحـد، فضلًا عن شـراء «واير» بحسـب المسـافة التي تفصل بيتي عن مكان المولِّدة العتيدة، وكذلك شـراء مفتاح تحكُّم، وعندما حسبت المبلغ الكلي تبين لي أنني سأصرف ثلـث راتبي الشـهري لكي أحصل علـى إنارة منقطعـة الحضور في منزلـي، وافقت مجبرًا، ودفعتُ له جزءًا من المبلغ لحين شـراء بقية العدَّة..

فـي طريق العودة إلـى المنزل، سـمعت بعض النـاس يتحدَّثون عـن عددٍ كبيـرٍ من الموتى، وعددٍ أكبر مـن الجرحى في انفجار هذا الصباح.. كان أحد الشهداء من سكنة منطقتنا..

بينمـا كنت أهـمُّ بالدخول إلى المنزل، رنَّ جـرس هاتفي، كانت «وفاء السـامي» تخبرني بأنها لم تسـتطع الوصول إلى مركز الشرطة بسبب انفجار مهول وقع هذا الصباح..

سـمعت صـوت انفجار ثانٍ تهادى إليَّ مـن بعيد.. ومن ثم دوى الثالث الذي جعل الأرض من تحتي تترنَّح..

يا إلهي، ماذا يجري هذا اليوم؟

اتصلـتُ بالصحافي الـذي يعمل في جريدة «الصبـاح»، لكنه لم يرد..

فكرت في أن أتصل بالشاهد «أبو نادية»، إلا أنني تريثت قليلًا، فربما يكون في جلسة التحقيق..

اتصلت «مريم»، وأخبرتني بأن الانفجارين أحدهما وقع في جانب الكرخ والآخر في جانب الرصافة، وأن أحدهما نفذته امرأة، فقلت لها: «هذا معتاد؛ فالعنف الدموي في وطننا لا يهمه مَنْ يقتل إنما مَنْ يموت؟».

اتصل «أبو نادية»، وأخبرني بأن المحامي ورئيس اتحاد الأدباء وشخصًا آخر اسمه «حسن المزهون» وبعض الصحافيين حضروا إلى مركز الشرطة مبكِّرًا، لكنَّ «نهى» لم تحضر، ولذلك أرجأ ضابط التحقيق الجلسة إلى يوم الأحد التالي..

دبَّت الخيبة في نفسي، واشتعلت الحسرات: «أما كان لك يا نهى أن تحضري اليوم إلى جلسة التحقيق لتنتهي حكاية الرواية، لعنة الله عليكِ وعلى القتلة الأوغاد سفهاء الأحلام.. حثاء الأسنان».

اتصل «حسن المزهون» ليخبرني بأنه في طريقه إلى بيتي، دخلت مطبخي لإعداد وجبة غداء للضيف القادم من مدينة الحلة..

تبدَّدت آمالي، كم كنتُ متحمسًا هذا الصباح لسماع خبرٍ حاسمٍ بشأن فصول الرواية، ولكن..

قضيت أكثر من أربع ساعات حتى وصل «حسن»..

رحَّبت به..

بدت ملامح وجهه دالة على تعبٍ قاهرٍ طال روحه قبل بدنه، لكنه، وبينما كان يجلس على أريكة في الحديقة، بادرني قائلًا:

- ما يجري لنا هو الجحيم يا «سعيد»، هناك تفجيرات في مدينة الحلة، ولكنَّ التفجيرات في العاصمة أكثر عددًا وفداحة، تبدو العاصمة مدينة خربة، هرمة، مدينة يحتلها الشيطان، ويعبث بها على هوى جنونه..

- هذا قدرنا يا أخي «حسن»، منذ فترة وأنا لا أذهب إلى العمل في الوزارة، فكل لحظة ترى الموت أمامك، هؤلاء يتفننون في قتلنا وإبادتنا بشكل منهجي ومنظم.. لندخل إلى الصالة، وسامحني أنني أعددتُ لك بنفسي وجبة غداء بسيطة لأن زوجتي، وكما أخبرتك، عند أم «مرهون»..

- لا بأس عزيزي «سعيد»، ما عاد للطعام من لذَّة في حياتنا لكن لقاءنا هو اللذيذ..

جلسنا في الصالة، يجمعنا الطعام الذي «لم تعد له لذَّة» كما يقول «حسن المزهون»، كان صوت المذياع يتهيأ لنشرة الأخبار، وبعد لحظات قرأ المذيع بصوت يذبحه الحزن ما نصه: «سقوط

عشرات القتلى وأكثر من مائتي جريح في ثلاثة انفجارات بسيارات مفخخة هزّت أطراف العاصمة ووسطها صباح اليوم».

ومن ثم دخل المذيع إلى تفاصيل النشرة، مؤكّدًا ما أخبرتني به «مريم» من أن امرأة نفذّت أحد التفجيرات، وهو التفجير الثالث، وكان أحد قادة القوات الأمنية قد قال عبر النشرة: «إن أجزاء من جسم الإرهابية التي نفذت التفجير بسيارة مفخخة قد وجدت متلاشية ومتفحمة الدماء بعد إخماد النيران التي اندلعت بسبب التفجير».

- ماذا تقول يا «حسن» عن ظاهرة النساء الانتحاريات؟

- هي ظاهرة ليست جديدة، أتذكر أن الجماعات المتطرفة في الشيشان عملت بهذا الأسلوب، كانت تدفع بالنساء المضحوك عليهن إلى الموت بهذه الطريقة تحت عناوين الجهاد وما أشبه من الوعود الزائفة..

- تفخيخ المرأة يعني تفخيخ الجسد الأنثوي الذي خلقه الله للجمال والحب والإنجاب، وها هو يصبح اليوم وسيلة رخيصة لتدمير كيانه والآخرين معًا، أيَّة مهزلة تعيشها البشرية؟ أيَّة مهزلة نعيشها يا «حسن»؟

- ما نعيشه هو مهزلة المهازل يا «سعيد»، ربما القادم سيكون أسوأ وأفظع وأردأ، فكل المؤشرات توحي بأن حياتنا تسير إلى الهاوية، خصوصًا أننا بتنا نسمع عن حرب طائفية تنذر بجرائرها!

ونحن نلملم صحون مائدتنا البسيطة، رنَّ جرس هاتفي الجوال، لم أرد بانتظار أن نجلس، أنا و«حسن»، في الحديقة..

ظلَّ جرس هاتفي يرنُّ لأكثر من مرَّة، وأخيرًا أجبت، فكان «محمود»، جار بيت أم «نهى»:

- أهلًا «محمود»، كيف حالك؟

- عزيزي «سعيد»، قبل عشر دقائق سمعت أصوات نواحٍ وبكاءٍ في بيت أم «نهى»، و..

- هل مات أحد من أقربائهم في تفجيرات اليوم؟

- والدة «نهى» هي التي كانت تبكي وتنوح، وهناك كلام أن «نهى» نفسها هي التي ماتت!

- يا رجل! ماذا تقول يا رجل.. هل أنت متأكِّد؟

- تراني أنتظر الخبر المؤكد لكي أتصل بك.. تحياتي..

- شكرًا لك يا أخي «محمود»..

- هل سمعت يا «حسن»، «محمود»، وهو جار لبيت أم «نهى»، يقول: «إن نهى قد تكون ماتت..».

- ماتت؟! كيف ذلك؟ كيف ماتت؟ اللعنة، ماتت الآن؟ ماذا نفعل يا «سعيد»، فتلك كارثة؟

- دعني أتصل بـ «مريم»..

أعلمتُ «مريم» بالخبر الفجيعة، وطلبت منها إعلام والدة «مرهون» به، وإقناعها بأن تتصل بأم «نهى» للوقوف على حقيقة ما سمعناه.

صار القلق سيدنا، أنا و«حسن»: «كيف تموتين الآن؟»

سأل «حسن»، وأضاف قائلًا: «يا سعيد، الأفضل لنا جميعًا الذهاب إلى بيت أهل نهى».

رنَّ هاتفي، كان الاتصال من «محمود» الذي أكَّد لي موت «نهى»، وأضاف قائلًا:

- إنها طريقة موت بشعة يا «سعيد»، لقد نفذَّت «نهى» أحد التفجيرات التي وقعت صباح هذا اليوم بالعاصمة، والأخبار التي ذكرت أن امرأة انتحارية نفذت التفجير الإرهابي صحيحة، وكانت «نهى» هي التي نفذت التفجير اللعين..

- كيف ذلك يا رجل؟ كيف؟

- لا أعرف، إذا أردت المزيد من الأخبار فعليك أن تأتي بنفسك إلى بيت أهل «نهى» وتعرف ما جرى.

- أشكرك أستاذ «محمود»، سأفعل ذلك.. إلى اللقاء..

- نعم يا «حسن»، ما سمعناه كان حقيقيًّا، «نهى» هي التي نفَّذت تفجير إحدى السيارات المفخخة صباح هذا اليوم، الأفضل أن نذهب إلى هناك..

قاطعني «حسن» قائلًا:

- يا «سعيد»، قد يكون في الأمر خطورة عليك وعلى زوجتك، إنها عملية إرهابية، وقد يضيع جميعنا في ملابساتها؟

- كلا يا صديقي، نحن وفي كل الأحوال من الضائعين أصلًا، هيَّا لنذهب إلى هناك، سأتصل بـ «مريم» وأخبرها بالموضوع، هيا يا صديقي، أنتَ اليوم ضيفي، سنذهب إلى هناك ونعود معًا إلى هنا..

# 39

عندمـا وصلنـا إلى بيت أهل «نهـى»، كان الهدوء سـيد المكان، لا بـكاء ولا نواح، كل شـيءٍ بـدا هادئًا، رأيت «محمـود» يقف عند باب داره، لوَّح لي بالدخول إلى بيت أم «نهى»..

طرقنـا البـاب لثلاث مرَّات حتى فتحت، كانـت امرأة لا نعرفها، أخبرتهـا أم «مرهـون» بأنهـا عمَّـة «نهـى» وأم زوجهـا المرحـوم «مرهون»..

دلفنـا جميعًا إلى صالة المنزل، وجدنـا أم «نهى» متورِّمة الوجه، تلطمـه كاتمة بكاءهـا، تتنهد صدمتهـا، حتى رفعت رأسـها الذليل، ونظرت إلى وجه أم «مرهون»، قائلة:

- لقـد ماتـت «نهى»، لحقـت بـ «مرهـون»، ماتـت بطريقةٍ شـائنةٍ، لا أدري مـاذا أفعـل؟ لا أدري كيـف سـيراني الناس بعـد ما فعلته ابنتـي الملعونة بـي وبكم، سـوَّد الله وجهها؟ هل سيسـامحونني وابنتـي قاتلة لأبنائهم، مجرمـة، إرهابية؟ يا رب أسـألك الصبر.. يا رب الرحمة.. أسـألك الرحمة والرأفة بي وليس بتلك المجرمة التي قتلت الناس..

- كيف عرفتِ يا خالة أن «نهى» هي التي فجّرت السيارة المفخخة؟ سألت «مريم».

- أنا سمعت دوي الانفجارات صباح هذا اليوم، لم تكن «نهى» موجودة في البيت أصلًا، كنت مساء أمس قد تناولت دوائي وغططت في نومي.. وعندما استيقظت صباحا لم أجدها؛ لا في سريرها، ولا في أي مكان آخر داخل البيت.. وبعد ساعة على الانفجار الثالث، سمعت طرقًا على باب البيت، خرجتُ دون أن أجد أي شخص، بدلًا من ذلك، وجدت رسالة في مظروف أسمر اللون تحت فردة الباب، فتحت المظروف فوجدت فيه 300 دولار، وهذه الرسالة.

أخذ «حسن المزهون» الرسالة من يد أم «نهى»، وصار يقرأها بصوتٍ مسموعٍ: «بسم الله الرحمن الرحيم.. كتب الله لابنتكم المجاهدة نهى ردّام مصطفى الشهادة في سبيل الله هذا النهار، وهي تذهب اليوم إلى جنّة الرحمن الذي أحبّها لأنها مؤمنة وصادقة في عهدها معه جلَّ شأنه.. إن أخت المجاهدين نهى، هي التي نفّذت عملية جهادية صباح هذا اليوم لتنال من الخونة والعملاء والكافرين والمحتلين لبلاد المسلمين».

- كيف صارت «نهى» أختًا للمجاهدين؟ كيف؟ سألتْ أم «نهى» بصوتٍ ناحب الألم..

- البقاء لله يا أم «نهى».. قالت أم «مرهون».

- أنا خائفة يا أم «مرهون»، خائفة من الحكومة، ومن الأمريكان، وخائفة جدًّا من أهالي الناس الذين ماتوا بالتفجير، ربما سيقتلونني أو يذبحونني أو يفجِّرون بيتي على رأسي، هذه مصيبة، مصيبة يا أم «مرهون» سببتها لنا هذه البنت العاق..

- لن يقتلكِ أحد يا أم «نهى»، والأفضل أن تذهبي إلى قريبٍ لكِ في منطقةٍ أخرى حتى تهدأ النفوس..

أخذَنا الصمت جميعًا، وبدت الصدمة مؤثرة فينا، فوجدتُ من المناسب الحديث عن موضوع الرواية، شعرت بالحرج بداية، لكنني لملمت شجاعتي في تلك اللحظة، وسألت أم «نهى»:

- أنتِ تذكرين قضية رواية «مرهون»، هل تعرفين أين وضعتْ «نهى» أوراق الرواية التي أخذتها من المستشفى؟

- يا بني، «نهى» لم تأخذها فقط، إنما سرقتها من «مرهون» عندما كان نائمًا في المستشفى أو ربما ميتًا، لا أدري، وهي التي حرقتها بعد أن قطعتها، مزقتها وحرقتها أمامي، في حديقة المنزل الخلفية، وعندما سألتها: لماذا تفعلين هذا بأوراق زوجكِ؟ قالت: مرهون يقول فيها إنني غير شريفة! لعنت تلك اللحظة، ولعنت اليوم الذي أنجبت فيه هذه البنت وجه النحس التي حوَّلت حياتي إلى جحيم وبؤس ونكد..

- عندما تتحوَّل امرأة إلى إرهابية قاتلة يعني أنها تدرَّبت على ذلك، ألم يلفت نظرك ذلك يا أم «نهى» من خلال سلوكها؟ سأل «حسن المزهون».

- يا بني، أنا لا سيطرة لي عليها، هذه البنت، ومنذ كانت صغيرة، متمرِّدة علينا جميعًا، كانت سببًا في موت والدها ومقتل شقيقها الوحيد الذي رزقنا الله به.. وكثيرًا ما كانت تزجرني وتهدِّدني بالقتل ذبحًا إذا ما اعترضت طريقها في موضوعٍ ما.. وفي الفترة الأخيرة صارت تصرفاتها غير معقولة أبدًا، خصوصًا بعد موت «مرهون»، كانت تغيب عن البيت لأسبوعٍ أو أكثر في كل مرَّة، وبدا لسانها لاذعًا أكثر من السابق، ولكن، ومهما فعلت «نهى» من سيئات، فهي تبقى امرأة لا أكثر، ضعيفة، تخدعها الكلمات، فكيف والجماعة المشؤومة تسميها «أخت المجاهدين»؟ من أين جاء هؤلاء؟ من أين جاءوا إلينا لعنة الله عليهم؟

- مَنْ هم الجماعة؟ سألتْ «مريم».

- لا أعرف، ولكنها عندما تتحدَّث بالهاتف، تقول الجماعة.. الجماعة، الجماعة.. لا أدري مَنْ هم الجماعة، أسأل لله الرحمة والغفران لها، يا رب سامحها، لقد قتلت عبادك، ودمَّرت عمرانك في الأرض، ولكل حي موت، ولكل جنب مضجع.. سامحني يا ألله.. سامحني يا رب.. يا رب..

# 40

خرجنا من بيت أم «نهى» خاسرين كل شيء: «مرهون»، و«نهى»، والرواية، وأرواح الناس التي زهقت في الانفجار الثالث وغيره من الانفجارات، خسارات عدَّة في خسارة كبرى قضمتنا جميعنا..

كنَّا صامتين والدهشة تحفر فينا اليأس ممَّا جرى وما سمعناه من أم «نهى».. كنَّا نجلس في بيت أم «مرهون» وصدمتنا بالمصير البائس الذي انتهت إليه ابنتها تجعلنا ندَّخر كلامنا إلى حين غير مُسمَّى، كيف استدرجوكِ يا «نهى» إلى هاوية مخزية؟ كيف وجدوا الضعف فيكِ حتى تسلَّقوا إليه، وجعلوكِ تحبلين به لتلديه خلاصًا بلا أمل أو رجاء، كيف؟

# 41

في المساء، أخذتُ «المزهون» إلى منزلي، أمضينا بضع ساعات في المقهى، وغرقنا في أحاديث عن الثقافة والأدب، وعن المصير المأسوي لرواية «مرهون».. سألني «حسن» عن إمكانية نشر الرواية ناقصة الفصول، قلت له: «لا أدري، لا بُدَّ من استشارة رئيس اتحاد الأدباء.. وكذلك بعض المثقفين، والمتخصِّصين القانونيين، كل شيءٍ الآن هو ملك لوالدة مرهون كونها الوريث الأخير لكل ما تركه ولدها وزوجته نهى».

في صباح اليوم التالي، ودَّعت «حسن» عائدًا إلى مدينته الحلة، ووعدته بأنني سأزوِّده بأيِّ أخبارٍ أخرى حول الرواية..

إلى بيت أم «مرهون» أخذتني خطاي، اتفقت معها هناك على بيع مكتبة «مرهون» إلى وزارة الثقافة، وأخبرتها بأنني سأطلب من رئيس الاتحاد العام للأدباء والكتّاب غلق ملف الدعوى القضائية المرفوعة ضد «نهى»، وسأتداول معه حول موضوع الرواية منقوصة الفصول..

اتصلت برئيس اتحاد الأدباء، وأخبرته بأن «نهى» ماتت من دون إعلامه بأنها انتحارية أو إرهابية أو مجاهدة، لا أريد تشويه سمعة «مرهون» وهو في قبره رغم أن رئيس الاتحاد سيعرف ذلك مستقبلًا، وطلبت منه مفاتحة وزير الثقافة حول إمكانية شراء مكتبة «مرهون»، خصوصًا أن الوزير هو أحد المثقفين اليساريين..

هاتفتُ «أبو نادية»، وأخبرته بأن «نهى» ماتت، فتأسَّف لهذا الخبر، واتصلتُ أيضًا بالمحامي، وأخبرته بكل ما جرى يوم أمس، خصوصًا موت «نهى» في عملية انتحارية لكي يغلق القضية رغم أنها ستطول في شعاب التحقيقات الجنائية والإجرائية؛ إذ يجب تقديم شهادة وفاة «نهى» لإسقاط الدعوى، ووعدته بذلك رغم تعقُّد الحالة ومخاطر ما يحيق بنا جرَّاءها في زمن الموت الرخيص..

في ظهيرة اليوم التالي، جرت الأمور بحسب ما أردنا؛ إذ أمر وزير الثقافة بشراء مكتبة «مرهون» مقابل خمسة آلاف دولار، وأمر أيضًا بطبع الأعمال الأدبية والنقدية الكاملة للراحل «مرهون الشاكر» على نفقة وزارة الثقافة، وكذلك أمر بتشكيل لجنة لدراسة إمكانية نشر رواية «مرهون» الأخيرة «ينحني الصابر للوجع» منقوصة الفصول ضمن الأعمال الكاملة..

هاتفت «حسن المزهون»، وأخبرته بكل هذه التطورات ففرح لذلك فرحًا هائلًا..

بعـد عشـرة أيـام، جـاءت لجنـة مـن وزارة الثقافـة إلـى بيت أم «مرهـون» لجـرد مكتبة ولدهـا الراحل، ووضع تركتـه من كتب في صناديـق خاصـة، ونقلها إلى مقر الـوزارة، واسـتلمت أم «مرهون» فيما بعد مبلغًا تعويضيًّا وهي تبكي رحيل المكتبة عن بيتها كما رحل ولدها «مرهون» قبلها إلى عالمه الأبدي..

توسَّـمت بـأم «مرهـون» خيرًا عندمـا طلبت منهـا أن تعيش معنا بانتظار ولادة «مرهون» الصغير فوافقت على ذلك بروح وسيمة..

# 42

بعد شهور، تم اغتيال الدكتور «أحمد الجبوري» في أثناء خروجه من منزله بمنطقة الغزالية غرب العاصمة.. وفي الفترة ذاتها هاجر المحامي «عمّار القاضي» إلى وطن بديل.. وعاد «أبو نادية» إلى مسقط رأسه في مدينة تكريت بعد تهديدات متكررة بالتهجير المناطقي.. وبعد أن صار الانتقال بين حي وآخر محفوفًا بالمخاطر في بغداد، تجنَّبتُ الذهاب إلى عملي في الوزارة على نحو يومي مع ضمان معاشي الشهري.. وفي طريقه إلى بغداد العاصمة، نجا «حسن المزهون» من محاولة اختطاف بأعجوبة.

في أثناء كل ذلك، حلَّ «مرهون» الصغير ضيفًا ملائكيًا بيننا، بدا طفلًا فاتن المحاسن، بهيَّ الثنايا، يشبه أمه «مريم» في أغلب ملامحها العابقة بالجمال باستثناء اللون العسلي المشع في عينيه النجلاوين..

بدت أم «مرهون» مسرورة بملاكنا الصغير وهي تضاحك فيه رائحة الأمل عندما يجالس حضنها مرَّة أو تضمُّه إلى صدرها مرَّاتٍ أخرى، وتناغيه بشغف ولهٍ لحفيدٍ أفنت عمرها من أجل ملاقاة

طلّتـه التي تذكرها بطفولة ولدهـا الفقيد «مرهون»، بل وبطفولة بقية أولادها الذين رحلوا قبلها تباعًا..

ربما سـيكون المشـهد أكثر دفئًا لو كانت والدتـي، رحمها الله، حاضرة بيننا، ربما سـتضفي على وجود حفيدها الأول شوق رؤيتها لكائن ملائكي يناغيها، وبلسان طري يهتف: جدتي.. جدتي!

# 43

بعد حيـن، أصـدرت وزارة الثقافة الأعمال الكاملـة لـ «مرهون الشـاكر» بطبعـة أنيقـة تضم روايـة «ينحنـي الصابر للوجـع» بمتنها الحكائـي المنقـوص، حيـث غيـاب الفصليـن الثانـي والخامس، وكانـت أم «مرهون» الصغير، زوجتي، قد كتبت مقدِّمة لها باسـمها الصريـح، وهـي المرَّة الأولى التي تظهر فيها مادَّة منشـورة باسـمها رغـم نصيحتهـا لي سـابقًا بضرورة نشـر نـصِّ الرواية مـن دون أيِّ مقدِّمةٍ له، إلَّا أنَّ الملابسـات التي أحاطت بالنص، اسـتدعت كتابة مقدِّمـة تتحـدَّث عـن ظـروف الرواية كوليـد إبداعي أخيـر للكاتب الراحل «مرهون الشاكر».

أمـا أنا، «سـعيد الدهان»، فظهر اسـمي مرارًا فـي مقدِّمة زوجتي «مريم» للرواية، كما ورد اسـمي كثيرًا فـي المقدِّمة العامَّة والطويلة للأعمـال الكاملـة التـي كتبهـا ثلاثة مـن النقَّـاد الكبار عن مشـروع «مرهون الشاكر» الإبداعي في القصة والرواية.

* * *

قد تكون أحداث رواية «ينحني الصابر للوجع» انتهت بين موت وولادة!

ولكن، ما زال جميعنا ينحني للوجع..

ما زلنا ننحني لهاوية بلا ملامح..

ترانا اليوم، وفي الغد أيضًا..

سننحني..

وننحني..

ولا مفر..!

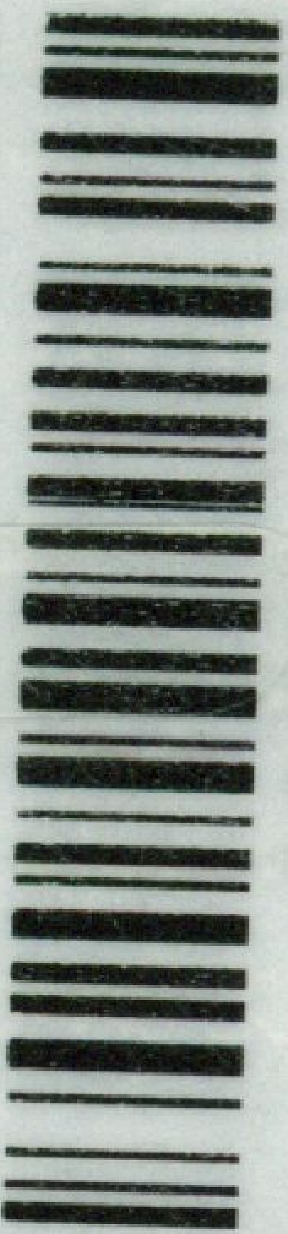
لأول مرَّة يتفق ضابط مع إرهابي على قضية واحدة، هي قضية اسمها جسدي، جسدي هو وطنهما الحقيقي، كلاهما يحرس جسدي بطريقته الخاصَّة كما يحرس كل منهما الوطن بطريقته الخاصَّة، قلت لكَ إن الوطن يريد مني أن أُضحِّي من أجله، أن أكون عاهرة، وهذه مسؤولية تاريخية، كما كان يقول رئيسنا الفارُّ، أما أنتَ فيريد منك هذا الوطن أن تكون راضخًا ومنحنيًا حتى يرضى عنك، أنْ تكون المثقف الراضخ، ماذا أفعل لكَ، أنتَ لا تريد أن تكونَ راضخًا؛ لا لوطنك ولا لزوجتك، سُهى الفاجرة، كما تسمِّيها أنت بينك وبينك.

***

بين واقع روائي، وخيالٍ واقعي، تدور أحداث هذه الرواية، التي ترصد الرحيل الأبدي للكاتب «مرهون الشاكر» إثر مرضٍ عضالٍ، وعبر رحلة البحث عن فصلين مفقودين من آخر رواياته، يرصد الكاتب آلام مثقفٍ مفجوعٍ بوطنٍ يتهاوى، وزوجةٍ وحبيبةٍ مزَّق جسدها صاروخ أمريكي هائج؛ وزوجة ثانية تمرَّدت على زوجها المفجوع بخيانتها له.. على خلفيةٍ مفخخةٍ، تحدث كل لحظةٍ في بغداد.. إنها رواية تستحق القراءة، ويمكن وصفها بأنها رواية «رواية»، أو رواية «السَّرد المفتون ب

---

رسول محمد رسول، كاتب وناقد، حاصل على الدكتوراه في
عام 1997م. يعمل أستاذًا جامعيًّا، ومستشارًا ثقافيًّا، ويكتب
فكرية وثقافية وأدبية عدَّة. له أكثر من عشرين كتابًا، منها
الإماراتية، العلامة والتواصل، اللمس والنظر، الأنوثة الس
بذاته، شعرية المؤدّى السَّردي، وغيرها من المؤلّفات الفلسفية










الدار المصرية اللبنانية